التزكية

على منهاج النبوة

المرحلة الأولى

مرحلة الطالبين

الباب الثاني

تزكية العقل والفكر

الدكتور معاذ سعيد حوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾

[الشمس: ٩-١٠]

«اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها»

أخرجه مسلم

المرحلة الأولى
مرحلة الطالبين

الباب الثاني تزكية العقل والفكر

تمهيد

تبدأ التزكية من المعرفة بالحقائق الثابتة التي يجب أن يؤمن بها الإنسان، فإذا عَرَفَ الحقَّ ثم آمن به اهتدى القلب، قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، وإذا عرف الحق ومال عنه إلى الباطل فقد انحرف القلب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وإذا اهتدى القلب دفع صاحبه إلى العمل الصالح، وإذا انحرف دفع صاحبه إلى العمل الفاسد.

ومعرفة الحقائق الثابتة وإدراكها هو من عمل العقل.

وقبل أن نبين كيف نزكي العقل، حتى لا ينحرف عن معرفة الحقائق، وقبل أن نبين أثر تزكية العقل على النفس كلها، وقبل أن نبين الحقائق التي يجب أن يدركها ويعرفها العقل؛ لا بد أن نبين ما هو العقل، وما هو عمله.

الفصل الأول

حقيقة العقل ووظائفه

وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول:** تعريف العقل.
- **المبحث الثاني:** قدرات العقل ووظيفته.

المبحث الأول

تعريف العقل

العقل لغة: العَقْلُ: الحِجْر[١] والنُّهى ضِدُّ الحُمْق، والمَعْقُول: ما تَعْقِله وتدركه بقلبك، والعَقْلُ: التَّثَبُّت في الأُمور، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلاً لأَنه يَعْقِل صاحبَه عن التَّوَرُّط في المَهالِك أَي يَحْبِسه، فالعاقِلُ هو الذي يَحْبِس نفسه ويَرُدُّها عن هواها، وعَقَلَ الشيءَ يَعْقِلُه عَقْلاً: فَهِمه[٢]، والعقل: المنع، لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل[٣].

يفهم من هذه المعاني للعقل أنه به تدرك الأمور وتفهم، وبه تميز الأمور، فيُعرَف به ما فيه مصلحة الإنسان وما فيه مفسدته، فيكون سبباً في البعد عن المهالك وسبباً في البحث عن المنافع.

العقل اصطلاحاً: عرف العلماء العقل بتعريفات كثيرة، بعضها يجعل العقل هو الروح، لأن العقل لا إدراك له بلا روح، وبعضها يجعله هو القلب،

---

(١) أي المنع.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور ج ١١ ص ٤٥٨ -٤٦٢، ومما قاله أيضاً في العقل: والجمع عُقولٌ، عَقَلَ يَعْقِل عَقْلاً، وعَقَل فهو عاقِلٌ وعَقُولٌ من قوم عُقَلاء، رَجُل عاقِلٌ وهو الجامع لأَمره ورَأْيه، مأْخوذ من عَقَلْتُ البَعِيرَ إِذا جَمَعْتَ قوائمه، وقيل: العَقْلُ هو التمييز الذي به يتميز الإِنسان من سائر الحيوان، ويقال: لِفُلان قَلْبٌ عَقُول، ولِسانٌ سَؤُول، وقَلْبٌ عَقُولٌ فَهِمٌ، ويقال: عَقَّل: تَكَلَّف العَقْلَ، والعَقْلُ: الدِّيَة، وإِنما قيل للدية عَقْلٌ لأَنهم كانوا يأْتون بالإِبل فيَعْقِلونها بفِناء وَلِيِّ المقتول، وأَصل العَقْل مصدر عَقَلْت البعير بالعِقال أَعْقِله عَقْلاً، وهو حَبْل تُثْنى به يد البعير إِلى ركبته فتُشَدُّ به.

(٣) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، ص ٦٧، لزكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، تحقيق: د. مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

لأن محل العقل القلب، وبعضها يجعله هو الإنسان لأن ما يميز الإنسان عن غيره العقل، وبعضها يجعله غريزة تعرف بها العلوم، وبعضهم يجعله ذات العلوم.

وبعض العلماء يستعمل العقل اصطلاحاً في معانيه اللغوية، وهو الأقرب لتعريف حقيقته وماهيته[1].

وعرف كثير من العلماء العقل بأنه التعقُّلُ وإدراكُ العلوم، فلم يلتفتوا إلى إثبات ماهية للعقل أو آلة هي التي بها يعقل الإنسان، بل عدوا العقل هو ذات العلوم، ومنهم من لم يعمموا في ذلك كل علم، بل جعلوه في حدود العلوم البدهية التي يدركها كل أحد، فقالوا:

«**العقل: مناط التكليف**»[2]، و«**هو العلم ببعض الضروريات**»[3]، فلا يكون تكليفٌ بالإيمان إلا بوجود العقل، أو بوجود تلك العلوم التي تُوصِلُ إلى إدراك الحقائق الإيمانية.

وهذا المعنى ليس ببعيد عن طريق القرآن الكريم، فقد أطلق **العقل على المعقولات والمعلومات التي يدركها العقل**، كما سيأتي بيانه.

والذي أرجحه في تعريف العقل جمعاً بين التعريفات السابقة وغيرها أن العقل: هو **اللطيفة التي يدرك بها الإنسان العلوم والمعاني والأشياء، وبها يميز بين الحق والباطل، والنافع والضار.**

---

(١) انظر في تعريفات العقل: التعريفات للجرجاني ص١٩٦-١٩٧، رقم ٩٨٥، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ص٦٧.

(٢) كتاب المواقف، ٢ / ٨٦، لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٧م. وذكر الإجماع على ذلك من أهل الملة.

(٣) وهو قول الإمام أبي الحسن الأشعري، المواقف: ٢ / ٨٦.

ومعنى قولنا: «لطيفة» أي إن العقل أمر معنوي موجود، لكنه غير حسي، وإن ارتبط بموضع حسي من الجسد.

العقل كما ورد في النصوص ومعانيه:

ذكرت مشتقات لفظة العقل في القرآن الكريم والسنة كثيراً، وغالباً ما تطلق على أحد ثلاثة أمور:

العقل: من حيث هو آلة لإدراك العلم، والعقل: من حيث عملية الإدراك والتعقل التي توصل لإدراك العلوم، والعقل: بمعنى العلم الذي يستفاد بالعقل(١).

العقل بمعنى الشيء الذي به يعقل الإنسان ويدرك العلم والمعاني والحقائق:

وكل موضع رفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل، فالعقل فيه بهذا المعنى(٢).

قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على **عقله** حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم»(٣).

---

(١) وقد ذكر الراغب في مفردات القرآن، ص ٣٤١، اثنين منهما، فعبر عن ذلك بقوله: «العقل: يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل».

(٢) الراغب، مفردات القرآن، ص ٣٤٢.

(٣) حديث صحيح، وفي رواية للحديث: «عن المجنون حتى يبرأ، ـ وفي رواية: يفيق ـ وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقِل»، أخرج هذا الحديث على اختلاف في ألفاظه وتقارب في معناه: الترمذي في جامعه رقم ١٤٢٣، وأبو داود في السنن رقم ٤٣٩٨ و٤٤٠١ و٤٤٠٣ وابن خزيمة في صحيحه رقم ١٠٠٣ وابن حبان في صحيحه ١٤٢ و١٤٣، والحاكم في مستدركه رقم ٩٤٩ وصححه على شرط الشيخين، =

العقل بمعنى استعمال العقل في عملية التعقل والفهم والإدراك والتمييز:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٧٦]، أي لماذا لا تستعملون عقولكم، لتعلموا بها ما يجب أن تعلموه، والآية تدل على أن الذي يستعمل العقل ويستفيد من معلوماته التي أدركها، ويبني قناعاته وتوجهات قلبه عليها، ثم يعمل بجوارحه بما يوافق ذلك فهو العاقل حقاً، وأما مَن أدرك شيئاً وعرفه ثم تصرف بخلافه فكأنه بغير عقل، لأنه يستوي مع غير العاقل في عدم الاستفادة من المعلومات، لكنهما لا يستويان في أثر ذلك، فمن لا عقل له لا حساب عليه، ومن لا يستفيد من عقله ومعلوماته فهو محاسب على ذلك، ووصفه بعدم العقل من باب التقريع له والتنبيه.

قال تعالى ذاكراً قول الكافرين يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، فهؤلاء لم يستعلموا عقولهم، ففاتهم معرفة الحق، ونتج عن ذلك أن تكون حياتهم وأهواءهم وأعمالهم كلها خاطئة خاسرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالآيات نافعة لمن يستعمل عقله في النظر إليها والتفكر بها فيهتدي بذلك إلى معرفة خالقها وقدرته.

= والدارقطني في سننه رقم ١٧٣، وغيرهم، والحديث بمجموع رواياته وشواهده يصل إلى حد الصحة. وقوله عن الصبي حتى يعقل أي يبلغ الاحتلام كما بينته روايات أخرى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٧٠]، فهؤلاء وصفوا بأنهم لا يعقلون لأنهم لا يستعملون عقولهم فيما يجب أن تدركه وتعرفه.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يُعيدُ الكلمة ثلاثاً، لتُعقَل عنه[1]، أي لتفهم عنه ويُدركَ معناها.

العقل بمعنى المعقول والمعلوم الذي يدرَك بالعقل:

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام: ١٥١]، أي لتعرفوا ما هو معقول يفهمه العقل ويدرك صوابه وأنه حق وخير.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، لا يعرفون قدر هذا النبي ﷺ، وهذا الأمر يدركه العقل بالتفكر والأخذ عن الشريعة.

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، أي وما يعلمها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، أي لعلكم تعرفون ما يُدرَكُ بالعقل.

وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فالمقصود فيه عدم علمهم لما يجب أن يعلموه بعقولهم[2]، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٦٤٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ونحوه الحاكم رقم ٧٧١٦ وصححه على شرط الشيخين.

(٢) مفردات القرآن، الراغب، ص ٣٤٢.

﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، أي لا يعرفون ما يجب أن يعرفوه بعقولهم، وذلك لأنهم لا يستعملون العقل.

والقرآن يستعمل العقل بهذا المعنى كثيراً، وينفي وجوده عن الكافرين، ولا ينبغي أن يُظَنَّ أنه ينفي عنهم العقل الذي به التكليف، لذلك قال والدي رحمه الله: «ويطلق العقل في الشريعة على شيئين:

أولاً: على ما هو مناط فهم الخطاب، وإذا وجد فقد أصبح الإنسان مكلفاً ضمن شروط.

ثانياً: على قبول خطاب الشارع والعمل به، وذلك هو العقل الشرعي.

وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١٠] ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤] ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]»[(١)].

هل للعقل محل في الجسم:

بغض النظر عن محل العقل، فإن الذي يهمنا في هذا الكتاب حيثما ذكرنا العقل أن نتكلم عما يدركه العقل ويعرفه ويميزه، سواء أدركه في القلب أو في الدماغ أو بالروح، فلا يتوقف على هذا الأمر أثر في علم التزكية[(٢)].

---

(١) الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، سعيد حوى، ج ١، ص ٢٩.

(٢) وقد نبه بعض العلماء إلى أن هذا الأمر لا يترتب عليه فائدة، فأينما كان العقل ومهما كانت ماهية العقل؛ فذلك لا يهمنا، إنما يهمنا إثبات عملية التعقل وما ينتج عنها من مُدرَكات ومعقولات، والقرآن الكريم لم يذكر العقل أبداً وإنما ذكر عملية التعقل، كقوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] و﴿يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤] و﴿عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥] و﴿نَعْقِلُ﴾ [الملك ١٠]. انظر: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة: الكتاب الثالث: **أصل المعرفة طرقها وأنواعها**، د.راجح الكردي، دار الفرقان، عمان، ط٢، ٢٠٠٣م، ص ١٢٤.

وحيث ذكرنا القلب فنعني جانب التقلب والعواطف والقرارات من قبول أو رفض لما يَرِدُ من العقل، حتى لو كان العقل في القلب، فكأن القلب حينئذ يضم أكثر من عالَم.

المبحث الثاني

قدرات العقل ووظيفته

ـ يولد الطفل وعنده الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهي قوة محضة خالية عن الفعل، أي لم يستعملها الطفل بعد، فعقله خالٍ عن الصور والتصورات والمعقولات، خالٍ من المعلومات التي تدرك بالعقل، ويسمي البعض هذا العقل بالنظر إلى هذه الحالة: العقل المجرد(١).

والله تعالى أشار إلى وجود هذا الاستعداد العقلي عند الإنسان منذ ولادته، وأنه لا يكون عندئذ عند الإنسان أي معلومة لعدم استعمال العقل وأدوات المعرفة قبل ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ـ والعقل خلق قادراً على إدراك البدهيات عالماً بالضروريات، فهو مستعد بذلك لاكتساب النظريات، ويسمى العقل بالنظر إلى هذه الحالة: العقل بالملكة.

ولذلك خوطب الإنسان بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ [الروم: ٨]، ليستعمل ملكته العقلية وينتفع منها.

ـ فإذا استعمل الإنسان عقله وتكرر ذلك صارت فيه نظريات مختزنة محفوظة فيه، يقدر على استحضارها متى شاء من غير تكرار استعمال قدرة

(١) ويسميه بعضهم بالعقل الهيولي، ذَكَرَ الجرجاني هذه التسمية وما بعدها: العقل الهيولي، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد، وعَرَّفها في كتابه: التعريفات، ص ١٩٧-١٩٨، وعلى الرغم من أنه يمكن أن تكون هذه التسميات قد دخلت إلى المسلمين من الفلاسفة؛ إلا أني أثبتها لأن لها معاني صحيحة، وقد أوضحتها كما فهمتها من كتاب الجرجاني، وذكرت من النصوص ما يدل عليها أو يشير إليها.

التعقل، ويسمى العقل بالنظر إلى هذه الحالة: العقل بالفعل.

وهذه المعقولات والمعلومات هي التي تكفي لحصول الهداية، ويكون الإنسان قادراً على تحصيل الهداية من خلالها مع بلوغه سن البلوغ، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم (1) مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

ـ فإذا كثر استعماله لهذه النظريات والحقائق ونتائج التعقل؛ قويت هذه النظريات في ذهن الإنسان بحيث لا تكاد تغيب عنه، ويسمى العقل باعتبار هذه الحالة: العقل المستفاد.

وإلى هذا جاءت الإشارة بالمدح لأولي الألباب المتفكرين والمتذكرين، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

ـ أهم أسباب تفاوت المعلومات المعقولات بين شخص وآخر:

قدرة العقل على الإدراك والتعقل، واستعداده للنظر والتفكير والفهم والاستنتاج والتمييز بين الأشياء؛ تبدأ مع الإنسان من أول لحظة في حياته، وزيادة ما يعلمه الإنسان وما يعقله ويدركه لا ترجع إلى أن القدرة العقلية تزيد مع الأيام كلما كبر الإنسان، وإنما تزيد المعلومات والمعقولات والمُدْرَكات وتتفاوت من شخص إلى آخر لأسباب أخرى:

١. فتتفاوت بحسب استعمال كل إنسان لقدرته على الإدراك والتعقل.

فالعقل واحد، وقدرته واحدة في الجملة، بمعنى أن الحد الأدنى الذي يُتَوَصَّل به إلى الهداية، ويتوقف عليه التكليف بالإيمان وأحكام الدين؛ أمر

(١) قال بعض المفسرين: أي عمرناكم إلى البلوغ والرشد، فهو السن الذي تستطيعون التذكر والفهم فيه، فكنتم مكلفين عند بلوغه.

مشترك عند جميع العقلاء، لكن أثر استعمال العقل هو الذي يَزيد أو يُنقص وجود المعقولات والمعلومات عند هذا أو ذاك، كإنسان قادر على البناء ولم يبن أي غرفة، وإنسان قادر على البناء وبنى عمارات كثيرة، فهي موجودة عنده، وليست عند الآخر، لكنهما من حيث قدرتهما ابتداء متساويان.

٢. كما تتفاوت المعقولات وتزداد بحسب تهيؤ الأسباب والمعينات على تحصيل المعلومات، فمن كان له بصر وسمع ساعد ذلك عقلَه في استفادة معلومات ومعقولات أكثر، فالعقل في جانب من معلوماته مُحتاجٌ إلى منافذ جسدية تعينه على إدراك الأشياء، فالسمع والبصر والشم والذوق واللمس؛ كلها تساعد العقل في إدراكه للأشياء.

وأعظم هذه المنافذ السمع والبصر، لذلك جاء ذكرها في القرآن مراراً مع الفؤاد، الذي قُصِدَ به القلب وما فيه عقل يدرك التكليف والمسؤولية، قال تعالى مبيناً فضله ومنته علينا بما أكرمنا من عقل ومنافذ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

والإنسان حينما يستفيد معلومات من خلال البصر وما يراه، ومن خلال السمع الذي يسمع به من غيره من الناس فيستفيد معلومات، لا بد أن يستعين بالعقل على إدراكها وفهمها وتحليلها وتقييمها، ولو كان خالياً من العقل لم تفده هذه المنافذ.

٣. كما تتفاوت المعقولات بقدر إدراك اللغات، إذ لا بد حتى يستفيد الإنسان من السمع، أن يدرك اللغات التي يتكلمها غيره، ليفهم عليهم، فإذا فهم أوصلوا إليه معلومات، أو ذكَّرُوه بمعلومات، وقد تكون بعض تلك المعلومات مما يمكن أن يصل إليه الإنسان بعقله، ولو استعمل عقله لوصل إليها، لكنه كان غافلاً عنها أو غافلاً عن التفكير فيها، فحصلت

معرفته من غيره، لا لعدم قدرته، بل لعدم استعمال عقله.

والطفل الذي لم يعقل الكلام واللغات تفوته هذه الفائدة، لذلك تقل المعقولات والمعلومات عنده، لا لعدم قدرته على فهمها، بل لعدم تفكيره فيها وعدم وصولها إليه من غيره، فإذا أدرك لغةً ما؛ استفاد من خلالها كما ذكرنا، ولأجل ذلك أمرنا الله أن نقرأ ونتعلم، ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ولأجل ذلك أنزل الله القرآن مذكِّراً لأهل العقول، ليختصر على الناس طريق المعرفة التي تَنشأُ عنها الهداية، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

٤. كما تتفاوت المعلومات بحسب استعمال العقل في الجمع بين المعلومات الموجودة عنده، واستنباط نتائج منها لم تكن عنده.

٥. كما تتفاوت المعلومات المعقولات بحسب اهتمام صاحبها بتذكرها والانتفاع منها، فتزداد عنده سرعة استحضارها، وتزدحم على الذهن الحقائق الكثيرة فتعينه على الاستنتاج الأدق في مسألة ما.

لذلك نجد القرآن ينبه على التذكر ويأمر به ويَذْكُرُ أسبابه كثيراً، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ٨٠]، ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

٦. كما يظهر تفاوت المعقولات بحسب القدرة على التعبير عنها، وليس هذا من نقص العقل، وإنما هو راجع إلى الآلة المعبرة عما في العقل، فيُظن نقصاً في العقل، وهو نقص في غيره.

٧. وبقدر ما ينتفع أحدنا من عقله ومن الأمور السابقة بقدر ما تظهر فائدة

العقل عنده، ولا شك أن أثر ذلك يظهر في تزكية الإنسان لنفسه، وصلاح حياته وحاله، وموافقته للحق والصواب وبُعدِه عن الباطل والخطأ.

وسنذكر في هذا الكتاب أهم ما يجب أن يعقله الإنسان ويدركه ويعرفه، عسى أن يستفيد من عقله الاستفادة الأكبر، فيكون على خير حال.

وقد لا يستفيد الإنسان من كل ما ذكرنا لأمر في نفسه، حال بينه وبين الاستفادة من عقله، لذلك كان لا بد أن ننبه إلى الموانع التي تحول دون التعقل أو الاستفادة من معلومات العقل، وسنبينها فيما بعد إن شاء الله.

ـ المهمة الأساسية للعقل هي التفكير أو التفكر للوصول إلى العلم:

فبالعقل يمكن تحصيل العلم، ولذلك نجد النصوص القرآنية كثيراً ما تتوجه إلى الكافرين والغافلين تطالبهم بالتفكير للوصول إلى الحقائق.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾[الروم:٨]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الأعراف:١٨٤]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

والتفكر: هو نظر العقل في الأدلة بترتيب أمور معلومة في الذهن ليصل من خلالها إلى علم أمر مجهول عنده[1].

---

(١) عرف الجرجاني الفكر بأنه «تصرف القلب بالنظر في الدليل»، التعريفات: ص ٧٦، رقم ٣٤٢، وعرفه في موضع آخر بأنه: «ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول»، التعريفات: ص٢١٧، رقم ١١٠١.

قال والدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله: «وللدماغ تكليفه: وهو أن يفكر فيربط الأسباب بمسبَّباتها، ويربط الأدلة بمدلولاتها؛ ليصل إلى الحقيقة، وللقلب تكليفه: وهو أن يقبل الإسلام الذي أوصل إليه العقل، وأن يستنير بنور الإسلام»(١).

وقال: «وللإنسان دماغ هو محل التفكير والمحاكمات، وقد يكون محل خزن المعلومات، وهو محل إدراك الخطاب، وهو مخزن الحواس ومركز الإحساس، ومنظم الجملة العصبية إلى غير ذلك من المهام، وهناك الروح التي تعطي الجسد والقلب والدماغ الحياة»(٢).

وقال: «والعقل هو مناط التكليف ، وهو الجهة التي يدرك فيها الإنسان فحوى الخطاب، وهو وسيلة الانسان للمعرفة، وهو [أي العقل] مفطور على معان، فعنده بدهيات مستقرة، وله قوانين مغروسة، وهو يصل إلى المعرفة من خلال التعليم والاستقراء أو الاستنتاج، ومن هاهنا وجد علم المنطق الاستقرائي والاستنتاجي، فأن يتعرف الإنسان على علم المنطق للتعرف على قوانين العقل، وعلى ما هو بدهي، وعلى ضوابط الاستنتاج الصحيح، والاستقراء الصحيح، فهذا القدر لا حرج فيه»(٣).

والمرأة تستوي مع الرجل في القدرة على استعمال العقل للوصول إلى الهداية، ونقصان عقل المرأة(٤) لا يعني أنها لا تعي التكاليف، أو أنها لا تستطيع أن تدركها، فالعقل التكليفي الذي تُدرِك به المرأة الخطاب التكليفي الشرعي

(١) الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، ج ١، ص ٢٤.
(٢) الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، ج ١، ص ٢٧.
(٣) الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، ج ١، ص ٢٨.
(٤) الوارد في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم «ناقصات عقل ودين».

هي فيه كالرجل، ولا يعقل أن يكلفها الشرع بشيء وهي غير قادرة على تعقله، فالمقصود بنقصان العقل غير هذا المعنى[1].

(١) قال والدي رحمه الله: «المرأة بالنسبة للعقل التكليفي الذي هو محل إدراك الخطاب كالرجل، إلا أنها تختلف عن الرجل في مقدار التكليف وفي طبيعته نوع اختلاف، بسبب تركيبها الذي يتناسب مع دورها الحياتي، فهي من هذه الحيثية ينقص دينها وعقلها عن دين الرجل وعقله». الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، سعيد حوى، ج١، ص٤١.

الفصل الثاني

تزكية العقل والفكر ليصل إلى الهداية

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** تزكية العقل بفعل ما يوصله إلى الحق.
- **المبحث الثاني:** تزكية العقل بترك ما يمنعه من الوصول إلى الحق.
- **المبحث الثالث:** أثر تزكية العقل واستقامة الفكر في تزكية النفس في سائر جوانبها.

المبحث الأول

تزكية العقل بفعل ما يوصله إلى الحق أي كيف نصل إلى الهداية

إن تزكية العقل إنما تكون باستعمال العقل على وجهه الصحيح، والاستفادة منه في الوصول إلى الصواب والحق، وأن يلازم استعماله في التوصل إلى الحقائق والانتفاع منها، مع تطهيره من التفكير المنحرف والنتيجة المنحرفة الخاطئة، فذلك الذي تبدأ به تزكية النفس، وهو الذي يقود إلى تزكية القلب وأحواله، وإلى تزكية الجوارح وأعمالها.

تزكية العقل والفكر هي هدايته إلى الحق والخير والصواب، في أهم الحقائق في هذا الوجود(1).

وهذا تفصيل يبين الحال الذي يجب أن يكون عليها العقل، ليكون زكياً مهتدياً:

١. استعمال العقل:

إن مَنْ خُلِق سوياً غير مجنون ولا مختل في عقله، فعقله فيه القدرة على معرفة الحق والصواب وطريق الهداية، وعلى الإنسان أن يستعمل العقل فيما أعطي من قدرة على التفكير والتمييز والوصول إلى الهداية.

والله تعالى حينما أمرنا بالتفكر في مثل قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]؛ فإنما يحثنا على استعمال العقل، وينبهنا إلى أننا يمكن أن نصل إلى الحق باستعماله.

---

(١) لذلك سيكثر الحديث عن الهداية في هذا المبحث، لأنها هي مظهر ونتيجة تزكية العقل والفكر.

ونبهنا الله إلى أن عدم التعقل يمنع كل فائدة، حتى من الأنبياء، قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

واستعمال العقل لا بد أن يكون استعمالاً سليماً منطقياً، حتى يصل إلى النتائج السليمة من خلال البدهيات التي أوجدها الله في عقل الإنسان، ومن خلال جمع الحقائق والمعلومات الثابتة ثم استنباط نتيجة صحيحة منها، وباستعمال براهين وحجج وأدلة سليمة تدل على النتيجة، ومن خلال الاستقراء والاستنتاج، وبالاستفادة من الحقائق التي توصل إليها الآخرون.

واستعمال العقل في التعقل والنظر والتفكر والتدبر والتذكر والتفهم والفقه(١)، كلما كان أكثر؛ كانت نتائج المعرفة وإدراك المعقولات المهمة أكبر.

وكلما استفاد الإنسان من أسباب زيادة المعقولات والمعلومات(٢)؛ كان أوسعَ معلوماتٍ وأقربَ إلى الهداية، وخاصة إذا اعتنى بالبحث عن المعلومات الأهم.

٢. بحث العقل عن الحقائق الكبرى المهمة:

العقل إذا استُعمِل ينفع صاحبه، لكنه إن اقتصر صاحبه على التفكير به في أمور خسيسة أو في جوانب دنيوية ولذَّات ومصالح قريبة؛ فإن فائدته تكون خسيسة أو متواضعة بقدر خسة ما فكر فيه.

وإذا أهمل الإنسانُ التفكيرَ بعقله في الأمور الخطيرة والمصالح الكبرى، وفي البحث عن الحقائق المهمة في الوجود؛ فإنه لا يكون قد استفاد من عقله الاستفادة المطلوبة.

---

(١) هذه الوظائف كلها ذات علاقة بمعنى التعقل، وقد نبه الله تعالى إليها كثيراً.

(٢) وقد ذكرناه قبل قليل تحت عنوان أهم أسباب تفاوت المعلومات المعقولات من شخص إلى آخر.

والحقائق الكبرى التي يجب أن يهتدي إليها الإنسان ويبحث عنها هي أركان الإيمان، وما ينبني عليها، وما يَلْتَحِقُ بها، فإن أخطأها ولم يصل إليها فذلك هو الضلال والانحراف الكبير، فمهما أصاب الإنسانُ خيراً وعرف أموراً غير ذلك؛ فلن ينتفع منها، ما لم يصل إلى هذه الأمور التي هي أهم وأولى بالمعرفة[1]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

٣. توجُّه العقل والقلب والجسد إلى طلب الحق والهداية:

إذا أدرك الإنسان أن هناك حقائق كبرى لا بد أن يبحث عنها، فإنه لا يتحرك نحو البحثِ عنها وطلبِها إلا إذا رغب قلبه بذلك، فإذا تحركت رغبة الإنسان وإرادته ومشيئته إلى طلب الحق فهذا الذي يمكن أن يهتدي إليه بإذن الله، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧-٢٨]، ثم بين أن مشيئة كل واحد من العالمين متوقفة على مشيئة الله، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وليس المقصود من الآية أن يقول للناس إنكم حتى لو أردتم الهداية فإني أمنعكم إياها، فالله لا يظلم الناس مثقال ذرة، وإنما المقصود بيان إرادته ومشيئته المطلقة، وبيان أنه حتى مع إرادتك الهداية؛ قد تكون عندك أمور أخرى تمنع الهداية، فسنة الله أنه قد لا يهديك إلا إذا استكملت أسباب الهداية التي طلبها منك، وقد بَيَّنَها جميعاً في كتابه، وهذه

---

(١) بيَّنَ الراغب في مفردات القرآن، ص ٢٩٨ أن الضلال ضربان: ضلال في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الله ووحدانيته ومعرفة النبوة ونحوهما... وضلال في العلوم العملية، كالضلال في معرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات...

أهمها؛ توجُّهُك إلى الحق ورغبتك بمعرفته والإيمانِ به، ومنها أن يسعى بجسده طالباً طريق الهداية باحثاً عنها وسائلاً.

ـ قد يستعمل الإنسان عقله كثيراً، وقد يستعمله أحياناً في البحث عن الحقائق المهمة، لكنه لا ينتفع منه الانتفاع المطلوب ما لم يكن حريصاً على أن يعرف الحق والخير والهداية، فواجب الإنسان أن يجعل التفكير متجهاً عنده إلى معرفة الحق والخير، وأن يجعل ذلك همَّه الأول.

إن حرصك على الحق، وطلبك الهداية إليه، وسلوكك سبيل معرفة الحق، وحرصك على العملِ به؛ سبب في أن يهديك الله أكثر، ويُعَلِّمَك ما لا تقدر على معرفته، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، فمن بذل الهداية التي يستطيعها أعطاه الله من الهداية مزيداً.

ولما كانت التزكية والهداية بمعنى واحد، وتتضمن شيئاً واحداً، لكنها تسمى هداية من كونها توافق الحق، فمن وُفِّق إلى الحق في فكره وإرادته وعمله سمي مهتدياً، وتسمى تزكية من كونها يحصل بها تطهير النفس وترقيتها، وإنما تتطهر وتترقى بقدر موافقتها للحق، فإذا وجدت الهداية عند إنسان كان من أهل التزكية، والله تعالى جمع بين التزكية والهداية إشعاراً بتكامل المعنى بينهما حيث قال ذاكراً قول موسى لفرعون ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩]؛ لما كانت الهداية والتزكية مترادفتان من حيث الحقيقة، فالحديث عن الهداية من الحديث عن التزكية.

والهداية تأتي في القرآن الكريم بمعاني متعددة[1]، أحدها أنها تأتي بمعنى

(١) قال الراغب في مفردات القرآن، ص ٥٣٨: «وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه: **الأول:** الهداية التي عَمَّ بجنسها كل مكلف، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، التي أَعَمَّ منها كلَّ شيءٍ بقَدَرٍ فيه حسب احتماله، كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. =

هداية العقل وإعطائه القدرة على معرفة الحق والبحث عنه، فوُصول العقل إلى الحقائق هداية[1].

والله تعالى أعطانا العقل الذي به الهدايةُ وبه التمييزُ بين طريق الخير والشر وطريق الثواب والعقاب، كما دل على ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان:٣][2]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، أي أعطيناهم الأسباب التي تحصل بها الهداية والتعليم، فلم يهتدوا ولم يتعلموا[3].

= **الثاني**: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]. **الثالث**: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. **الرابع**: الهداية في الآخرة إلى الجنة، المعني بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥] ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث».

(١) قال الجرجاني في التعريفات: ص ٣١٩، رقم ١٥٨٣: «الهداية: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب». وقال الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٣٨: «الهداية دلالة بلطف».

(٢) قال الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٤٠: «وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٨] فذلك إشارة إلى ما عرف من طريق الخير والشر (مجاز القرآن ٢ / ٢٩٩) وطريق الثواب والعقاب بالعقل والشرع».

(٣) انظر: الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٤٠.

وما من شيء جاء به النبي محمد ﷺ إلا وهو موافق للحق، فجازت تسميته بالهدى، ومن وصل إليه وأدركه فقد اهتدى، ومن لم يصل إليه فقد ضل، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وواجب الإنسان أن يجعل أول اهتماماته وأول أعماله أن يهتدي إلى الحقائق الكبرى والعقائد المهمة، ولا يقدِّم عليها شيئاً، ومن استخف بذلك ورغب عن الهداية وقدَّم غيرها عليها فذلك الخاسر لأنه قَبِل الضلالة، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦].

فلا تنتظر أيها العاقل لتعرف الحق في الآخرة، فلا ينفعك ذلك هناك، بل ابحث عنه وتعرف عليه في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه: ١٣٥]، ففي الآخرة تزول الغشاوات، ويدرك الإنسان من كان على طريق سوي في استعمال عقله وهدايته إلى الحق.

٤. تزكية العقل وترقيته: باستعمال العوامل المعينة للعقل، والتي تقرِّب إليه معرفة الحقائق أو تكون سبباً في انتباهه إليها:

ـ نظر العقل في الآيات الكونية والآيات القرآنية، ودلالاتها:

إن التفكر في آيات الله التي بثها في الكون تثير العقل وتفكيره ليهتدي إلى الحق، أي إلى معرفة الحقائق الثابتة الموجودة، قال سبحانه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧]، فنبه بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ على أن الآيات المبثوثة في الكون تثير العقل وتحركه نحو التفكير في الحقائق وإدراكها.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فكان السؤال تنبيهاً إلى آيات كونية تدلُّ على الله.

فقد يتعرف عقل الإنسان على ربه بالنظر في هذا الكون مع التفكر والاعتبار: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] فيؤديهم التفكر إلى الاستسلام للحق: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقد يتعرف عقل الإنسان على ربه من خلال آيات القرآن الكريم، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة:٢١٩]،﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

كما يعرِّف القرآن على صفات الله وأسمائه التي تذكر بها كثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣].

ورغم أن الحقائق الكبرى يمكن معرفة أكثرها وأهمها بالعقل، فالله تعالى لم يتركنا إلى عقولنا وتقصيرنا في استعمالها، بل أنزل على لسان رسله تنبيهاً إليها وتذكيراً بها وتعليماً لها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨]، فما على الإنسان إلا أن ينظر ليجد الحق في هذه الشريعة ويرى صحتها وصوابها، فإن اهتدى إليه فقد انتفع، وإن أضله وانحرف عنه فقد غوى وأخطأ الطريق السليم.

وإلى مثل ذلك نبه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزُّمَر: ٤١].

وقد يتعرف الإنسان على نفسه ودنياه وسنن الله فيها من خلال الآيات، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقوله: ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ تنبيه لنا إلى استعمال عقولنا بالتفكر والنظر حتى يحصل الاعتبار والعلم من خلال ذلك، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

والذي يرى آيات الله ويرفض دلالاتها يطمس الله على عقله فلا يهتدي إلى الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٤].

ـ خضوع العقل للمعجزات:

يقول الله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

إنَّ نظر الإنسان في المعجزات الخارقات للعادة التي أيَّد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام؛ يوصله إلى أنهم حق مرسلون من عند الله، فما أجرى على أيديهم أموراً لا يستطيعها الخلق جميعاً إلا ليدلنا على أنهم مرسلون من عنده وصادقون فيما يقولون وفيما يخبروننا به عن الله، فالذي يلتفت إلى هذا فيعرف أن ما أُنزل من عند الله حق فهو ذو اللب والعقل والقلب: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

فبدلاً من أن نبقى في غفلتنا أو ندعي عجز عقولنا عن الوصول إلى الحقائق أرسل الله الرسل لينبهونا إلى الحق ويخرجونا من غفلتنا: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦].

ـ الرجوع إلى الوحي في معرفة الحقائق:

ما دام قد ثبت بالمعجزة صدق النبي ﷺ وأنه لا يأتي بشيء من عنده، وإنما يأتي به من عند الله بالوحي، فلزم عقلاً أن يستسلم الإنسان لما يأتي من جهة الوحي، لأنه من عند الله، والله عز وجل أعلم منا وأعلم من جميع خلقه، فكيف نقدم علمنا وما استنبطته عقولنا على ما جاءنا من عند خالقنا.

والله تعالى ما أنزل القرآن ليصرفنا عن عقولنا، وإنما أنزله لعلنا نعقل ونهتدي به إلى الحق، ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، فليس ما جاء به الوحي ـ من كتاب أو سنة ـ مخالفاً لما تصل إليه العقول، وإنما هو مثير للعقول ومنبه لها على الحقائق.

كما أن الوحي يدلُّ العقل على أشياء لا يمكن أن يصل إليها بفكره ونظره، كوصف الجنة والنار وبيان وجود الملائكة والجن، وغير ذلك ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٥١]، ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٠].

وما جاء به الوحي ولم تدركه العقول، فعلى العقول أن تسلم له، لأنه لا يتصور أن يكون خطأً لأنه من عند الله الخالق العليم الحكيم، فلا تجهد نفسك في التفكير والتوصل إلى الحقائق التي أبانها لك الوحي والشرع، بل خذها وأنت مرتاح مطمئن مستسلم مستيقن.

فلا تتساءل: لماذا جعل الله الصلوات خمساً، ولماذا جعل كل صلاة عدد ركعاتها كذا، ولماذا فرض الزكاة بمقدار كذا، ولماذا فرض الحجاب على النساء، ولماذا لم يأمر بتحرير كل العبيد، ولماذا أمر بالقتال على ما فيه من شدة، ولماذا أجاز للرجال زواج أربعة ولم يجز للمرأة إلا واحداً، ولماذا جعل الله ميراثاً للنساء، ولماذا جعل ميراث النساء نصف ما للرجال، ولماذا حرم الربا، وغير ذلك من التساؤلات الجاهلة، التي تحمل في طياتها الاعتراض على الله، واتهامه في تشريعاته، والتي ينسون معها أن الله مالك الجميع، فالحق له في أن يحكم فيهم ما شاء، وأكثر هذه التساؤلات وأمثالُها قد أجاب عنها العلماء وبينوا حكمتها، فهي لا تخفى على العقول، ولكن مع ذلك فواجب الإنسان ـ سواءٌ فَهِم الحكمة أم لا ـ أن يسلِّم لله فيما شرَّع وقدَّر.

ولما كان النبي ﷺ لا يأتي بشيء من عنده، وكل ما جاء به من عند الله، فما جاء به كلُّه حق وهداية، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢]، فمن وصل إلى ما جاء به النبي وأدركه فقد اهتدى ونال الخير، ومن عمل به فقد زكى نفسه، ومن لم يصل إليه فقد ضل وخسر، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧٠].

ـ الاستفادة ممن أخذ عن الوحي وتعلم منه:

ومن أخذ عن الأنبياء وتبعهم وحمل علمهم من العلماء والدعاة والوعاظ الصادقين، فهم كذلك هداة إلى الحق، يقربون إليك ما يمكن أن يهتدي إليه العقل، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ [السجدة: ٢٤]، فالعاقل يستفيد منهم ويأخذ عنهم ما اهتدوا إليه من الحق، ويختصر على نفسه طريق

الوصول إلى الحقائق، ويسألهم عن الحق فيدلونه، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقد تأتيك هذه الحقائق بطلب أو بغير طلب منك، من خلال تعليم غيرك لك، أو من خلال تنبيه عالم أو داعية أو واعظ أو صديق، أو من خلال قراءة كِتاب.

ومن لم يهتد إلى الحق ولا اهتدى بهدى غيره فاتته الهداية قال تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، تنبيها أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم(١).

ـ الرجوع إلى الله تعالى الذي يملك العقول ويقدِر على هدايتها:

إذا وصل الإنسان إلى معرفة الخالق من خلال العقل أو الوحي، وأدرك أن الله هو المالك لكل شيء وهو الذي بيده كل شيء، فعليه أن يتوجه بعقله إلى طلب الهداية منه، فهو سبحانه يملك العقل ويملك هدايته، ورجوع العقل إلى الله وإنابته إليه من أعظم الأسباب التي تعطي الهداية، قال تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «فاستهدوني أهدكم»(٢)، فالله تكفل بهداية من يطلب الهداية منه، فواجبنا أن نرجع إلى الله طالبين منه أن يزكينا برحمته وفضله، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[النور:٢١].

ومن صدق الطلب من الله أن نتخذ أسباب الهداية والتزكية التي أمرنا الله

(١) انظر: الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٤١، وقال: «ويقال المهتدي لمن يقتدي بعالم».
(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٧، جزء من حديث.

بها، فمن تتبع ما يرضي الله وبحث عنه وسعى إليه؛ كتب الله له الهداية وأخرجه من ظلمات الجهل إلى نور معرفة الحقائق والعلوم، قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

ـ تَنَبُّه العقلِ عند الأحداث والبلايا التي توقظ العقل:

جعل الله تعالى في هذا الكون وفي خلقنا من الأحداث والمواقف ما يوقظ العقل وينبهه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

ختم الله الآية بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تنبيهاً لنا أن في مراحل حياتنا وفي موتنا ما ينبه العقل، ويوقظ العاقل، ويلفت نظره إلى غيب يؤثر في عالم الشهادة، يمكن أن تدرك العقول أثره ووجوده.

والمواقف المنبهة لعقل الإنسان والموقظة له كثيرة، منها: موت قريب أو صديق، أو دفن ميت، أو حادث، أو مرض مفاجئ، أو خسارة تجارة، أو بلاء كبير، أو شيب الشعر، أو غير ذلك، ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

ـ تنبه العقل من خلال الأثر الفطري في نفسه:

فالله تعالى خلق النفوس وفطرها على حب الحق والميل إلى العبادة، فمن لم تتأثر فطرته بالمؤثرات السلبية والعوامل الخارجية المفسدة؛ كان قريباً في نفسه من الحق، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

خاتمة المطلب

إن استعمال العقل بالنظر والتفكير على وفق المنهج الصحيح الموافق للوحي، مع تجنب الأسباب والمؤثرات التي تحول دون الاستفادة من العقل والفكر؛ إن ذلك هو الذي يعطي علماً ومعرفة بالحقائق، التي تشكل في مجموعها القيم الكبرى التي هي أساس الثقافة الصحيحة، فهي تُكَوِّن القواعد الأساسية والضوابط في حياة الإنسان على كل مستوىً، سواء على مستوى باطن الإنسان أو ظاهره، قوله أو فعله، ما يخصه وما يعم المجتمع، ما يتعلق بالمؤمنين وما يتعلق بغيرهم، وفي تلك الحقائق ما يكوِّن النظرة الصحيحة إلى الدنيا، وما يدعو إلى استعمال الدنيا على وجه صحيح، ينشئُ حضارة ذات قيم وأخلاق وتقدم، وفي تلك الحقائق ما يكوِّن النظرة الصحيحة إلى الآخرة، ويدفع إلى الإعداد لها، والتأهل لنعيمها الدائم.

وسنبين في الفصل الثالث أهم هذه الأمور، فنبين ما هي نتائج النظر والفكر الصحيح، الناتجة عن استعمال العقل على الوجه الصحيح، وإذا وجد هذا النظر العقلي وأثمر نتائجه من الأفكار والمعتقدات الصحيحة؛ تأهلت النفس لتزكية غيره من عوالمها، كالقلب والجسد.

وحتى يستفيد الإنسان من عقله وما يصل إليه من حق فلا بد أن يتجنب الأسباب والمؤثرات العقلية والقلبية والجسدية التي تمنع الوصول إلى الحق والهداية، أو تكون سبباً في الطرد من الهداية، وفي المبحث الآتي بيان ذلك.

المبحث الثاني

تزكية العقل بترك ما يمنعه من الوصول إلى الحق

تمهيد:

هناك أعمال باطلة تمنع الوصول إلى الهداية والحق، أو تَرُدُّ الإنسان إلى الكفر، منها ما يؤثر على العقل مباشرة؛ بأن يحول دون استعمال العقل والاستفادة منه، ومنها ما هو قلبي يحول دون الاستفادة من العقل عقوبة من الله، ومنها ما يرجع إلى الجوارح من مخالفات ومعاصي تؤدي إلى إفساد القلب وإبعاده عن الحق.

ولما كانت بعض أعمال العقل والقلب والجسد السيئة لها تأثير يعود على العقل بالإبطال؛ فكان لا بد من بيانها هنا، وبيان دليل تأثيرها السلبي على فكر الإنسان وهدايته، فذلك من سنن الله تعالى التي يُعامل بها خَلْقه، أخبرنا عنها في كتابه وسنة نبيه ﷺ.

وإنما نبين ذلك لأمرين:

الأول: للتحذير من تلك المؤثرات، ليحذر منها طالب الهداية والتزكية، وينتبه أنه حتى ولو كان عقله وفكره سليماً قد لا يجد الهداية، لا لمشكلة في العقل، بل لمشكلة في القلب أو الجسد، من مرض في القلب أو معصية في الجوارح؛ كانت حائلاً أو سبباً في عدم استفادته من عقله وفكره والحقائق التي توصل إليها.

الثاني: أن يعلم الدعاة إلى الله أن عدم إيمان الكافرين، ليس دائماً يرجع إلى عدم معرفة الحق أو عدم القناعة به، بل أكثر الكافرين يعرفون الحق مقتنعون

به، قامت عليهم حجته والمعجزات الدالة عليه، لكنهم بسبب مرض من أمراض القلوب امتنعت الهداية عنهم، فهؤلاء ليس علاجهم أن نكرر عليهم الحقائق وأدلتها، فيكرروا الإنكار، بل علاجهم أن نبين لهم وجود أمراض في قلوبهم، وأن نعينهم في الخروج من تلك الأمراض، إن استطعنا، وسنرى خلال هذا المبحث أن كثيراً من أقوال الشياطين والكافرين وأعمالهم لم يَرُدَّ الله عليها بالحجة والمنطق، بل اكتفى ببيان مرض القلب الذي أدى إليها، مِنِ اتباع الهوى أو الغفلة أو الكبر أو الحسد ...

في هذا المبحث ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** أمور تبعد الإنسان عن استعمال عقله فلا يصل إلى الهداية والحق.
- **المطلب الثاني:** وجود فساد في القلب قد يؤدي إلى الكفر وإلى عدم الانتفاع من الحقائق والعقائد.
- **المطلب الثالث:** من أعمال الجوارح التي قد تؤدي إلى الكفر وعدم الوصول إلى الهداية.

المطلب الأول

أمور تبعد الإنسان عن استعمال عقله فلا يصل إلى الهداية والحق

ـ التكذيب بالحق ورفضه والكفر به حينما يصل إليك أو تتوصل إليه:

الحق لا يجوز أن يُجعَل باطلاً، ولا يجوز لإنسان أن يقرِّر عكسه، وأي تكذيب للحق فهو رفض للصواب والخير، واختيار للباطل والشر، **وإذا كان تكذيباً بالحقائق الكبرى فهو الكفر**، لذلك كتب الله أن الهداية لا تدخل قلوب المكذبين والكافرين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣].

وكتب الله أن لا يهدي من كفر به وظلم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وأعظم الظلم عدم الاعتراف بالخالق وحقِّه.

وتكذيب الحق والمجادلة فيه بغير علم ولا حجة ولا منطق صحيح من علامات الاستكبار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، فواجب الإنسان أن يكون مصدقاً بالحق مؤمناً به مذعناً له.

ـ الافتراء على الله:

والافتراء هو تَعَمُّدُ الكذب وقَلْبُ الحقائق، والقصد إلى ذلك، ولا يخفى على صاحبه أنه متوجه إلى الباطل ومُعرِض عن الحق والهدى، فكيف يرجو أن يُهدى وهو يرفض الهداية، لذلك حذر الله من الافتراء عليه وبين أنه يمنع الهداية عن المفترين: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

وقال تعالى عن كتابه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت: ٤٤]، فعدم إيمانهم بالحق الواضح وعدم إذعانهم له عاد على القلوب بالعمى والإغلاق عن فهم الحق وسماعه.

وعلاج هذا المرض: أن يميل الإنسان بقلبه إلى الحق ويرغب فيه، ويصنع الرغبة والميل بتذكره أن لا يجوز تبديل الحقائق والتزوير فيها، فيصدُق مع نفسه في طلب الحق، ويُصدِّق به إذا عرفه، وإذا وجد في نفسه ميلاً إلى تكذيب الحق لأي سبب كان؛ فعليه أن يحمِل نفسه ويجبرها على الاعتراف بالحق، ورفض الباطل مهما كان ثمن ذلك.

ـ ومن أشد الكذب والافتراء: **تحريف كلام الله**، ومن يفعل ذلك يكون عالماً بالحق وهو يتقصد أن يبدله ويزور على الآخرين، وينسب إلى الله باطلاً ليس من كلامه، وهؤلاء لا يطمع الإنسان بهدايتهم؛ إلا أن يتوبوا من تحريفهم، وقد وقع في ذلك كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وقال تعالى مبيناً أنه لا يمكن أن يهتدوا وهم يقومون بهذا التحريف: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ

﴿فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٤١].

وبين الله تعالى أنهم إنما تجرؤوا على التحريف بعدما نسوا أوامر الله وذكره ووقعوا في آثام ومعاصي ونقض للعهود وأصابتهم قسوة قلبية؛ فأوصلهم ذلك إلى أمر أخطر هو التحريف لكلام الله عن مواضعه، فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ (١) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وكل من يقرأ ما حرفوه ويرضى به، وهو يرى فيه ما لا يمكن أن يكون من عند الله، كالشرك بالله، ونسبة الفقر إلى الله، ونسبة الفواحش إلى الأنبياء؛ فهو مقر للتحريف، فيكون شريكاً للمحرفين، ومجرماً مثلهم، وينال مثل عقابهم، ولا يمكن أن يهتدي إلى الحق إلا أن يتبرأ من التحريف والكذب على الله.

والقرآن الكريم الذي أنزل على الرسول محمد بن عبد الله ﷺ لا يمكن تحريفه ولا تبديل كلامه، لأن الله أراد ذلك وكتبه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولكن يمكن أن يقع الإنسان في جريمة التحريف فيه بتأويل كلامه وعقائده على غير وجهه، وبِقَوْل الباطلِ ونسبته إلى الله، والاستدلال عليه استدلالاً باطلاً، لا على سبيل الاجتهاد المقبول، بل على سبيل التحريف وقصد التضليل للخلق، أو النفاق لأهل الكفر، وقد حذر

(١) قال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ج ٦، ص ١١٦: «﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾: في معناه قولان: فاعف عنهم واصفح ما دام بينك وبينهم عهد، وهم أهل ذمة، والقول الآخر: أنه منسوخ بآية السيف، وقيل بقوله عز وجل: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ﴾ [الأنفال: ٥٨]».

النبي ﷺ من ذلك إذ قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضَلُّوا وأَضَلُّوا»(١).

والواجب على كل من يحرص على تزكية نفسه في زماننا هذا مع كثرة المنافقين والمضلين والجاهلين أن يتحرى عمن يأخذ دينه وعلمه، وأن يحذر من أن يقول بغير علم وخاصة في العقائد والمبادئ والقيم، أو يفتي بغير علم فيستحل الحرام ويحرم الحلال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقد حذر النبي ﷺ من التحريف في دين الله من خلال الكذب عليه فقال: «من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار»(٢).

ـ رفض حقيقة ثابتة واحدة سبب في ضلال العقل:

إن الهداية تحتاج إلى رغبة في معرفة الحق، وعزم على قبوله حين معرفته، فإذا تردد الإنسان في الواضحات، ولم يؤمن بها رغم وضوحها وثبوتها، فقد صادم عقله وتخلى عنه، وأعلن عدم الرغبة في الحق، فلا يهتدي بعد ذلك إلى خير ولا إلى حق، فهو كاذب حينما يدعي أنه يريد الحق في شيء وقد تخلى عنه فيما بان له واتضح، لذلك كتب الله تعالى أن لا يهدي من رفض الحق بعدما ظهر له.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٠٠ [بغا] ومسلم رقم ٢٦٧٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٠٨ ومسلم رقم ٢ عن أنس، وفي رواية عن المغيرة قال ﷺ في أوله: «إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد» أخرجه البخاري رقم ١٢٢٩ ومسلم رقم ٤.

قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقد بين الله تعالى أن رفض الحق والتكذيب بالآيات الواضحة يجعل الإنسان يفقد فائدة العقل وفائدة السمع والبصر التي تستعمل للوصول إلى الحقائق، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الاحقاف: ٢٦].

ـ الجهل واتباع الوهم وانحراف التفكير عن المنطق السليم:

ومن الجهل واتباع الوهم أن يسير في طريق غير منطقي لا يوصل إلى النتيجة التي يراد الوصول إليها والتعرف عليها.

مثال ذلك: ما فعله فرعون للتعرف على الله، فلم يطلب الدليل العلمي المنطقي الذي يدل على الغيب ويدل على وجود الله وصفاته من خلال فعله وآثار صفاته، وإنما طلب دليلاً مادياً متوهماً أنه سبيل المعرفة لله، وهو أن يبني بناءاً عالياً، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

ومثال ذلك أيضاً: من أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، بين الله تعالى في هذه الآية أن طريق الإيمان واليقين بالله هو الآيات والعلامات الدالة على وجوده ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، وليس ما طلبه الكافرون من كلام الله لهم وسماعهم له؛ فمن الجهل والوهم أن يظن الإنسان أن هذا طريق معرفة الله.

وقلوب الكافرين تتشابه في حملها لهذا المرض، ففي كل عصر ترى من يطلب مثل هذا الأمور التي لا تصلح دليلاً على وجود الله، ويترك الأدلة الحقيقية، يطلبون دليل الحس فيما هو غيب، أو ينكرون الغيب ويدعون أنه لا يوجد إلا المادة، مما هو محسوس.

وعلاج هذا المرض: أن يرغب الإنسان بالعلم، ويعرف أهميته، وأن الخير لا يكون بالجهل، فيدفعه ذلك إلى طلب معرفة الحقائق، وأن يهتم بأن يكون منطقياً في تفكيره، وأن يسلك السبل الصحيحة لمعرفة الحقائق، فما كان يتوقف على التفكير سلك فيه طريق التفكير والعقل، وما كان يكفي فيه الخبر الصادق؛ اكتفى به وصدّق بالخبر إذا كان صادقاً لا شك فيه.

وينبغي الالتفات إلى سبب الجهل، فإن كان تعلقاً بالدنيا فعلاجه في معرفة هوان الدنيا، وإن كان سبب الجهل مسايرة البيئة والأعراف وتقليد الأهل والآباء والعشيرة؛ فعلاجه في الانتباه إلى أن الحق أحق أن يتبع، وهكذا في كل ما يكون سبباً في الجهل.

ـ ترك العقل لقول الآخرين:

من العوامل المضللة للعقل أن يعظم الإنسانُ الآخرين، آباءاً أو غيرهم،

من غير أن يعرف أنهم على الحق أم على الباطل، ويعظمَ أقوالهم واعتقاداتهم، ويترك استعمال عقله وفكره.

ولو استعمل عقله أو استمع إلى الوحي لعلم فساد اعتقادهم وبُعدَهم عن العلم والحقيقة.

وهذا التقليد للآخرين بغير هدى ولا علم يفقد الإنسان الهداية، لذلك فقد ذمَّه الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٤].

ـ تلقي إلقاءات الشياطين ووساوسهم وتشكيكاتهم التي تدعو إلى الكفر:

الشيطان عدو، وظيفته الوسوسة بالشر والباطل، مقصده أن يدخلنا النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وواجب الإنسان أن يحذر من الخواطر التي يلقيها الشيطان ليشوش بها على الحقائق، ويشغلنا عنها وينسينا إياها، ويثير الشبهات، ويزين الباطل، وكل ذلك حذرنا منه الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ

ﱡﭐ اللَّهِ ﱠ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال عز وجل ذاكراً قول الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

والشيطان يستدرج الإنسان بأوهام لا حقَّ فيها، **فالعاقل يحاكم كل وساوسه، ولا يتبعه في أي فكرة**، ولا ينطق بمنطق الشيطان الأعوج، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٥].

وإذا استحكم الشيطان من الإنسان؛ فقد صار للشيطان عليه سلطان، فعندئذ يصير **الشيطان يصدر الأوامر** التي يريد بالأفكار الكافرة والأفعال المنحرفة، يتبعها الإنسان وينفذها بلا تردد، قال تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا * وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا * يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ [النساء: ١١٧-١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الحج: ٣].

والذين ابتُلوا بوساوس تشكيكية، تشككهم بحقائق الإيمان، وتشوش عليهم، فمعظم علاج ذلك في العلم بتلك الحقائق وأدلتها، فكلما شكك الشيطان بحقيقة واجهه المسلم بأدلتها وبرهانها فيخسأُ الشيطان ويخنس ولو

بعد حين، أمّا إذا لم يعرِف الحقَّ ولم يعرِف دليلَه؛ فلا يزال الشيطان يشوش عليه ويشككه حتى يغلبه ويبعده عن دينه.

ـ الغفلة عن استعمال العقل وعن طلب الحقائق:

كثير من الناس يعيش عمره ولم يفكر في أن هناك حقائق يجب أن يبحث عنها أو يفكر فيها، فهذا الغافل لا يفكر بأن يبحث عن الحق، ولا يستعمل عقله، غافل عن أهمية هذه الحقيقة أو تلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فالغفلة سبب في الضلال الذي يوصل إلى جهنم، كما بينت الآية، وقد وصفهم الله تعالى بالغفلة مبيناً أن حالهم من عدم الفقه والإبصار والسمع هو غفلتهم، والآية تدل على أن الإنسان لا يخرج من حالته التي هي دون الحيوان إلا أن يترك غفلته ويستيقظ، فكان أول الطريق السليم لسعادة الإنسان أن يطهر نفسه من غفلته باليقظة والانتباه إلى شأنه وما هو مطلوب منه.

وإذا كانت الأنعام لا تعقل الهداية وليست مكلفة بها، فإن الإنسان مكلف بطلب الهداية، وقد أعطاه الله ما يخرج به عن مشابهة الحيوان، فإذا شابه الحيوان على الرغم من أنه يتميز عنه بعقله وفهمه وإدراكاته؛ فإنه يكون عندئذ أدنى من الحيوان وأنزلَ رتبةً عنه، لذلك قال سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

هذه هي الغفلة العقلية، وقد يكون الإنسان عارفاً بالحق لكنه يتغافل عنه ولا يذكره، فهذا غافل القلب[1]، وغالباً ما تنشأ الغفلة بنوعيها عن مسايرة البيئة التي نشأ فيها ومتابعتها وتقليدها من غير تفكير، ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا

(١) وسيأتي بيان علاج غفلة القلب.

﴿كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، كما تنشأ عن انشغال الإنسان بحاجاته الجسدية وغرائزه وشهواته ودنياه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد: ١٢]، وقال: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، فبين أن سبب لهْوِهم وغفلتهم عن الحق هو طلبهم الاستكثار من الدنيا، ثم هددهم في الآيات التالية بأنه سيريهم الجحيم عقاباً ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٦-٨].

ورضاهم بالدنيا وحبهم لها واكتفاؤهم بها واستمتاعهم بها؛ جعلهم غافلين لا يتطلعون إلى غيرها ولا يفكرون في حقيقةٍ أهمَّ منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، يعيشون في غفلة عن حقيقة أمرهم، فلا يعرفون من هم، ولا ما وظيفتهم المطلوبة منهم في حياتهم، ولا ينتبهون إلى من أوجدهم، ولا يلتفتون إلى مآلهم ونهاية حياتهم، فيعيشون حياتهم أشبه بحياة الحيوان، ويفكرون بمثل تفكيره، يظنون الحياة للمتعة والترفه والأكل والشرب واللهو.

ومن رحمته سبحانه أنه يُمهِل خلقه حتى يصلهم الإنذار والتنبيه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، فإذا بقيت الغفلة رغم تنبيه العقل؛ تحمَّل الإنسان مسؤولية غفلته، فيصير مُستحقاً للعقاب والعذاب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

المطلب الثاني

وجود فساد في القلب قد يؤدي إلى الكفر وإلى عدم الانتفاع من الحقائق والعقائد(١)

تمهيد:

إنه لا يَكْفِي أن يعرف الإنسانُ الحقَّ، ويتوصل بعقله إليه، فقد يصل العقل إلى الحقائق ولا يستفيد، ذلك أن قلب الإنسان إذا كان لا يريد الخير والحق، وإنما يريد شهواته وغرائزَه ومصالحَه القريبة ولذاته الفانية؛ فإن هذا القلب يكون منحرفاً عن الحق رافضاً للحقائق، أو متغافلاً عنها، أو غير مذعن لها، بل قد يدعي أنها ليست بالحقائق وأنها باطل، على الرغم من ظهورها، كل ذلك ينشأ عن انحراف القلب وهواه الباطل وزيغه، وقد نبه الله إلى ذلك بقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فبين الله تعالى بقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أن وجود العلم لم يمنع من الضلال، بسبب وجود الهوى.

وقال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، فبين الله تعالى أنهم رغم تعقلهم للحق لم يتبعوه، بل حرفوه وكذبوا بما أدركوا صوابه وأحقيته.

ـ وقد بين الله تعالى كل أسباب انحراف القلب وزيغه، وبين ما يوصل

(١) هذا المبحث هو ألصق بموضوعات القلب، ولكنه لما كان موضوعه ذا علاقة شديدة بموضوع العقل والتأثير على هدايته فقد رأيت أن أجعله هنا.

منها إلى الكفر، وهذا بيان أهم الأسباب التي تحول دون الانتفاع من الحق ودون الهداية، لانحرافٍ في القلب يمنع من قبول الحقائق، أو يمنع من الانتفاع منها.

فالقلب إذا وجدت فيه هذه الأمراض منعت من متابعة العقل فيما أدرك من الحق، بل قد تحول دون إدراك العقل للحق، فيجب التطهُّر من هذه الأمراض القلبية التي يمكن أن تؤدي إلى الكفر وعدم الإيمان.

وإذا أوصلت هذه الأمراض الإنسانَ إلى الكفر؛ فلا يبقى مع الكفر شيء من التزكية أبداً، لأن الكفر بالإيمان لا خير معه، ولا تزكية معه، وكل خير مع الكفر حابط وباطل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

أمراض القلوب الخطيرة التي تمنع الإيمان والهداية:

ـ الكبر: بترك الحق استكباراً على الله وعلى حكم الله:

إن الهداية والإيمان ومعرفة قيمته؛ لا تدخل قلب مستكبر، يريد أن يسلب حق الحاكمية من الله إلى نفسه، فهؤلاء لا يهديهم الله، بل يصرفهم عن آياته وهدايته، قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقد ضرب الله لنا مثالاً على ذلك بإبليس الذي كان يعلم أن الله حق، وأنه لا ينبغي مخالفة أمره، لكنه استكبر على أمر الله مظهراً أنه مستكبر على خلقه، ولم يكن يخفى على إبليس حقيقة ربوبية الله فهو الذي قال لله بعد عصيانه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الحجر: ٣٦] و﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩]، وهو يعلم أن امتناعه عن طاعة الله

باطل، ويعلم أن أمر الله لا يجوز أن يخالف، لكن وجود الكبر في القلب غطى كل هذه الحقائق وجعل إبليس يسير طريق المخالفة لله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]، فما الذي جعله يفسق ويخرج عن أمر الله؟ إنه مرض الكِبْر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، فبكبره كان كافراً، ولم ينفعه علمه ومعرفته بالحقائق.

ومن صور الكبر التي تمنع الهداية؛ أن يشترط الإنسان شروطاً لا تحق له: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢].

وهذا الكبر إجرام كما سماه الله، وهو يتضمن نوعاً من الظلم والتعدي في طلب ما لا يجوز للإنسان أن يطلبه أو يشترطه، إذ يتناسون ويتجاهلون أن وراء عالم الشهادة غيب، لا يرونه وإنما يعرفونه بآثاره، فلا يصح أن يطلبوا معرفته مادياً، وإنما يعرف بالعقل والعلم والاستدلال.

ومن صور الظلم والاعتداء على حق الله: أن يطلب الإنسان من غيره من الناس أن يطيعوه في غير طاعة الله، فإنه ظالم يعطي لنفسه حقاً هو لله، وهو بهذا مستكبر، يرى نفسه أكبر من غيره من الخلق، يريد أن يشرع لهم وهو مثلهم، فيعطي نفسه حقاً من حقوق الرب الإله، فيتأله بذلك على الخلق، ويستعبدهم، ويقيد حريتهم بغير حق، وليس لأحد أن يشرع لهم وأن يقيدهم أو يلزمهم بشيء إلا مالكهم وخالقهم، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

وعلاج هذا المرض: أن يعلم المستكبر أنه مهما رفع نفسه، فإنه لا يجاوز قدره، ولا يتجاوز حقيقة كونه عبداً، فإنما يغش نفسه، فعليه أن يستسلم لهذه الحقيقة، ويعترف بأن الله أكبر منه، وأن الحق الذي يأتي من عند الله ليس له أن يترفع عنه، ولا أن يتطاول عليه، ولا أن يُعرِض عنه، وأن يعلم أن المستكبر مستكبر في محل الهوان والذلة؛ في الأرض، قال تعالى عن فرعون: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٩]، وبينت الآية أن وهمهم في عدم الرجوع إلى الله ارتبط بالكبر، لذلك فالإيمان بالدار الآخرة والقناعة بالرجوع إلى الله وتَذَكُّرُ ذلك يزيل الكبر.

ـ الظلم والإجرام:

والظلم مجاوزة الحد بغير حق، ومنع صاحب الحق من حقه، فإذا جاوز الإنسان حده في الوقوف عند الحق والإذعان للحقائق العلمية والمعجزات الباهرة؛ إذا جاوز حدّه فقد رفض الهداية واعتدى، ويكون بذلك ممتنعاً عن إعطاء حق الله في أن يُعبد ويُطاع، فيكون ظالماً بذلك.

وقد ضرب الله مثالاً على ذلك بقوم موسى جاءتهم الآيات الكثيرة والأدلة على صدق موسى وتأييده من عند الله بالمعجزات، فرغم تحقق اليقين في عقولهم من صحة نُبوَّته وما جاء به تركوا ذلك، بسبب رغبة القلوب في الظلم والعلو، قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۞ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۞ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

إن الهداية تحتاج إلى براءة من الظلم والإجرام، وطهارةٍ من حب الإفساد والأذى والمعاصي، فهؤلاء لا يهتدون ولا يؤمنون، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٢-١٣].

وعلاج هذا المرض: أن يجعل قلبه وقافاً عند الحق، وأن يعلم أن تجاوزه للحد لا يغير من الحق شيئاً، لكن ظلمه يعود عليه بالشر، إذ يحرم نفسه من الحق وخيره وبركته، فهو الذي يخسر، وظلمه يؤدي به إلى الكبر لذلك قرن الله بينهما ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾.

ـ اتباع الهوى، ومخالفة الشرع لما تهوى الأنفس:

إن أي مخالفة للحق فهو هوى وميل باطل، وأي ميل إلى الباطل فهو سبيل للضلالة، مانع للهداية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فبين أنهم لم يستجيبوا للحق بسبب الهوى.

وإنما سميت مخالفة الحق هَوىً لأن الإنسان إنما يخالف الحق لأجل شهواتٍ وأهواءٍ وميولٍ في قلبه ونفسه، واتباع الهوى والشهوات يحرف الإنسان عن حال التزكية وقد يصل بالإنسان إلى الكفر، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ومتبع الهوى في قلبه يضل ولو كان عقله قد عرف الحق، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فمع وجود العلم حصل

الضلال، بسبب وجود الهوى، الذي يسيطر على الإنسان حتى يصير إلهاً مطاعاً من دون الله.

وحينما يأتي الشرع بخلاف ما تهوى أنفسنا فواجبنا أن نطرح أهواءنا، لأن اختيار الله لنا هو الأصلح وهو الخير، ومصلحتنا في طاعة الله لا في أهوائنا، فمن قدم ما يهواه على أمر الله، ضل واختلت تزكيته، بل ربما وصل إلى الكفر والإجرام والقتل وتكذيب الحق، كما كان اليهود مع رسلهم، كلما أرسل لهم رسول رفضوه وكفروا به، لهوى في نفوسهم وميل باطل في قلوبهم، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وعلاج هذا المرض: أن يعلم الإنسان أن كل ما يحبه ويهواه غير ما أراده الله له؛ فهو باطل ومخالف للحق يفوت عليه مصلحته الحقيقية ومنفعته وخيره، فيستسلم قلبه لربه، ويجعل ميله إلى مراد الله.

وإذا علم أن الخير والحق عند الله؛ فعليه أن يبحث عن الحق، ولا يشتغل بالباطل عنه، أو لا يتغافل عن طلبه، فيكون من الخاسرين.

وهذا العلم لا يأتي حتى يتوصل إلى إدراك حقيقة الدنيا وهوانها في جنب الآخرة.

ـ ومن الهوى: **استحباب الباطل والضلال والانحراف**:

وقد ضرب الله مثالاً على ذلك بثمود قوم صالح، دلهم الله على الحق والهدى، أو أعطاهم أسباب الهداية، لكنهم مالوا إلى إغفال الحقيقة وكأنهم لا يرونها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وأسوأ من اتباع هوى النفس: اتباع أهواء الآخرين، وهذا بيانه:

ـ اتباع من يريد الباطل:

قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، والله يريد أن يتوب عليكم: يوفقكم لطريق التوبة والاستقامة والهداية، ويريد الذي يتبعون الشهوات: من الكفرة والفجرة والمفسدين، أن تميلوا ميلاً عظيماً: أي أن تميلوا وتنحرفوا عن القصد والعدل إلى الجَور والظلم، وعن الحق إلى الباطل، وعن العفة إلى الفسق.

لقد جاءت الشرائع الربانية لتشرع للإنسان ما فيه خيره وطهارته وعفته، فما شرعه الله تعالى هو الخير لنا، وهو الطهارة، وأما أهل الشهوات فلا يريدون لنا الخير ولا الهداية ولا الاستقامة، وإنما يريدون لنا الفساد والفجور والانحراف، لذلك لا يجوز اتباعهم ولا صحبتهم بل يجب الحذر منهم والأخذ على أيديهم.

ومثل هذا المرض: المرض الآتي:

ـ الميل إلى العادات والموروثات وتقليد الآباء بغير حق:

إن رغبة الإنسان في نصرة قومه وتأييد آبائه، من غير أن يتأكد أنهم على الحق؛ قد توقعه في الباطل والكفر أحياناً، فليس كل الآباء على حق، فالواجب أن يحذر الإنسان من أخذ أقوال الآخرين أيّاً كانوا من غير تثبُّتٍ وحجة.

وقد ضرب الله مثلاً على ذلك بقوم إبراهيم أقام عليهم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الحجة في عدم صحة عبادة الأصنام، فحينما فاجأهم بالحق انتبهوا إلى خطئهم، لكنهم بدلاً من أن يسلموا له، غلبوا ما تميل إليه قلوبهم من العادات وتقليد الآباء، ورفضوا الحق وكابروا لأجله بلا حجة، بل وأرادوا قمع من يواجههم بالحق ويدلهم عليه.

قال تعالى بعد أن ذكر أن إبراهيم كسر أصنامهم: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٥]، فمن لا يملك أن يدافع عن نفسه كيف يكون إلهاً؟ ثم لما وجدهم رفضوا الحق أقام عليهم حجة أخرى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٨]، وبين الله تعالى في سورة الشعراء في قصة إبراهيم أن الذي منعهم من قبول الحق رغم وصوله إلى عقولهم؛ هو تقليدهم لآبائهم وقومهم، قال سبحانه: ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٤].

وضرب الله مثلاً آخر بما فعله كثير من رجالات قريش، حيث لم يخف عليهم أن النبي محمداً ﷺ حق، لكن حجبتهم رغبتهم في متابعة الآباء تعظيماً لهم سواءً كانوا على الحق أو الباطل، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ورفضوا الحق تعظيماً لكبرائهم ولأنفسهم، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣٠-٣١].

وعلاج هذا المرض: أن يعلم الإنسان أن الآباء والآخرين يمكن أن يكون قد انحرفوا كما يمكن أن ننحرف، فليسوا خيراً منا في ذلك، فمن اتبع الحق فهو على خير، ويجوز متابعته، ومن اتبع الباطل فهو على شر، ولا يجوز متابعته، والحق أحق بأن يتبع، وقد نبه الله من يتبع آباءه في الحق والباطل، نبههم إلى أنه قد يكون آباؤهم لم يستعملوا عقولهم ولم يصلوا إلى الهداية، فكيف يتبعونهم؟

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا(١) عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ومناصرة العشيرة والآباء أو الحكام ومتابعتهم بغير تأكد من موافقتهم للحق ترجع في جانب منها إلى الكبر، فهو يميز عشيرته وقومه وآباءه ويجعلهم أكبر من غيرهم، وكل ذي عشيرة يفترض الحق فيها والباطل في غيرها، فكلٌّ يكبِّر قومه ويقدمهم بلا وجه منطقي للتقديم، والكل من تراب، والكل من أب واحد، وأسودهم وأبيضهم لا يتميز بهذا اللون، ولا بلغته ولا بموضع ولادته وحياته.

لذلك أسقط الله كل كرامة إلا بوجه منطقي، وهو التقوى التي بها يتمايز الناس عند الله، وبها يتقدمون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «إن الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية(٢) وتعاظمها بالآباء»(٣).

والتقليد إذا وافقتَ به أهل الحق قد لا يكون مذموماً، من جهة أن المقلِّد يكون على الحق عندئذ، لكنه يكون مذموماً وناقص التزكية من جهة أن المقلِّد لم يتبع السبيل الصحيح لمعرفة الحق، وهو يستطيعه، ومن جهة أنه يُمكن تشكيكه بعقائده بسهولة، ويكون مجال وسوسة الشيطان عنده أكبر، بخلاف من كان اعتقاده عن فهم ودليل واقتناع.

---

(١) ألفينا عليه آباءنا: أي وجدناهم عليه، وألفيناهم يعملونه ويقولونه ويعتقدونه.

(٢) عبية الجاهلية: أي كبرها.

(٣) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٣٢٧٠، ونحوه أحمد رقم ٨٧٢١ وأبو داود رقم ٥١١٦ وابن حبان رقم ٣٨٢٨.

ـ الحسد:

إذا رأى الإنسان نعمة على الآخرين؛ فلا ينبغي أن يدفعه ذلك إلى إيذائهم وتكذيب النعمة التي أعطاهم الله إياها، ولا ينبغي أن يدفعهم إلى تمني زوالها والسعي في إزالتها وإفسادها، بل لك أن تطلب من الله مثل هذه النعمة، إن لم تعلم أن الله خص بها أحداً دون غيره، وعليك أن تقدِّر هذه النعمة، لأنها من الله، ولك أن تنتفع منها من خلال صاحبها، إن كان ذلك ممكناً، وعليك أن تستفيد منها إن أوجب الله عليك طلب فوائدها بواسطة صاحبها الذي أنعم الله عليه.

وقد ضرب الله باليهود مثلاً على الحسد الموصل إلى الكفر، كانوا يعلمون أنه سيرسل نبيٌّ، ويعلمون صفاتِه، فلما جاء النبي محمداً ﷺ بالأوصاف التي يعلمونها؛ أنكروا ما يعلمون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩]، وكل ذلك راجع إلى مرض في قلوبهم هو استعلاؤهم على الأقوام الأخرى غير اليهود، فكلما أكرم الله غيرهم بشيء حسدوهم وأبغضوهم، وعملوا على إخراجهم عن الهداية كما أخرجوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وعلاج هذا المرض: أن يعلموا أن الله تعالى هو الأعلم والأحكم فيما يعطي ويمنع، وفيمن يختار لرسالته ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فيستسلموا لاختيار الله لأنه الأحسن، وهم حينما ينكرون على الأنبياء لأنهم ليسوا منهم أو ليسوا على أهوائهم؛ فإنما يحرمون أنفسهم من الحق ومعرفة الحق

ومتابعته، وهم بإنكارهم على الأنبياء وبحسدهم لهم يعترضون على الله الذي أعطاهم تلك النبوة، فبدلاً من أن يشكروا خالقهم على نعمته، يتهمون الله بسوء الاختيار، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤]، فلم يقل الله تعالى: على ما عندهم، بل قال: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ تنبيهاً للحاسد أنه إنما يعترض على فعل الله وقضائه.

ـ الغرور بالصلاح والرغبة في إظهار المزية على الخلق:

والغرور نوع من هوى النفس الإنسانية، فإذا اغتر الإنسان بنفسه، ونسي أن الخير الذي عنده من الله، ورأى نفسه خيراً من غيره، ورأى لنفسه مزية على غيره، ورأى نفسه أكبر من غيره؛ قد يدفعه ذلك إلى القول بالباطل، ليلفت الناس إليه، فقد يقول الكفر، وقد يخالف أهل الحق، وقد يبتدع، ليُرى متميزاً على الناس، عنده ما ليس عندهم.

وقد ضرب الله مثلاً على ذلك بالسامري كان على درجة من العلم والصلاح، فلما مال قلبه إلى أن يرى لنفسه مزية وكرامة أو جاهاً في الدنيا؛ تناسى ما يعرفه من الحقائق وتركها جانباً، وقَبِلَ لنفسه وقومه أن يتخذ إلهاً من دون الله، فيكون من الكافرين، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۞ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ [طه: ٨٧-٨٨].

وعلاج هذا المرض: أن يعلم الإنسان أن المزية لا تُنال بالباطل، فلئن ظهرت له المزية بالباطل حيناً فسوف تنقلب عليه وبالاً وخسراناً، فيصير مذموماً لا ممدوحاً، ثم إن صاحب الفضل في كل خير هو الله، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ

وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]، فعلينا أن نشكر الله ونعترف بفضله فنكبر الله، لا أن نطلب كبرياء أنفسنا ولا أن نشبع غرورها، فإذا اغترت النفس بما هو من فضل الله فقد نسبت لنفسها ما ليس لها فتكون كاذبة، فعلى القلب أن يبقى على الصدق والتواضع لله صاحب الفضل، ومن مدح نفسه ولم ينسب الفضل إلى الله فهو مهدد بعذاب الله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

ـ الإعراض عن الله وذكره وحكمه:

وهو من أشد أنواع التكذيب، بأن يعرف الحق ومع ذلك يدير ظهره وقلبه عنه، ولا يريد أن يفهم الحق، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الشعراء: ٢-٦].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤] فالمفهوم المخالف للعبارة الأولى يدل على أن من أعرض يضل ويشقى.

وقد وصف الله سبحانه المعرضين بالكفر، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقد ضرب الله مثلاً على ذلك بقوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُواْ

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

وعلاج هذا المرض: أن يميل بقلبه إلى الله وإلى حكمه، وهذا الميل والحب يأتي نتيجة القناعة بأن الله هو المحسن المتفضل على عباده، وأنه المتصف بالصفات الحسنى، وأنَّ حكمه هو الحق، وأنْ يقتنع بأنَّ ما يميل إليه ويُعرِض بسببه عن الله لا ينفعه بذاته، ولا يملك له نفعاً ولا ضراً، فهو محتاج إلى الله حتى في الأسباب التي يُعرض بها عن الله، فمهما أعرض الإنسان عن الله فهو محتاج إليه في كل شيء، وكيف يعرض عمن يقدر على إنزال العقاب عليه، وقطع الإمداد عنه؟ وبقدر ما يتذكر الإنسان هذه الحقائق يميل قلبه إلى الله أكثر، فلا يعرض عنه ولا عن هداه الأحكم، ولا عن حكمه الأنفع.

وقد يكون سبب الإعراض هو الغفلة عن عظمة الله ونعمه وفضله، أو هو الكبر، أو هو الفرار من التكاليف ليبرر لنفسه اتباع الشهوات والهوى، فيكون علاج الإعراض عندئذ بعلاج أسبابه.

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١-٤٢]، فذكرهم بنعمته عليهم واحتياجهم إليه عسى أن يخرجوا من إعراضهم.

وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧-٦٨]، فذكَّرَهم بعظمة القرآن، والشيء العظيم لا ينبغي أن يعرض عنه الإنسان، فكيف إذا كان هذا العظيم هو الله أو هو من عند الله، فلا ينبغي أن يستكبروا عليه ويعرضوا عنه.

ومن أسوأ الإعراض أن يصل الإنسان المعرض إلى حدِّ كُرْهِ الله ﷻ ورسوله ﷺ:

ـ بغض الله ورسوله ﷺ والمؤمنين أو كره شيء من دينه:

ومن كَرِه الله وكره إرضاءه، ولم يبال بغضب الله فقد فَقَدَ كل التزكية ولا قيمة لأعماله، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩] وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨].

ومن أحب الكافرين وأبغض المؤمنين فقد خرج عن الإيمان، فلا يهديه الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، والولاية والنصرة إنما تنشأ عن الحب القلبي، فلا بد من معالجة أسباب ذلك الحب وردها إلى الحق.

وطبيعي أن ينشأ عن البغض والكره لله ولرسوله ولدينه؛ استخفاف وسخرية واستهزاء، وهي من صور الكفر، أعاذنا الله منها، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

فعلى المسلم أن يخشى من كل صور السخرية والهزء من الرب والرسول والدين، ولو على سبيل المزاح فإنه لا يجوز.

علاج ذلك: إذا كان سبب الكره: الجهل بالله ورسوله ﷺ وبالمؤمنين والجهل بأنهم على حق؛ فالواجب التَّعَرُّف على الحق وأهله، ثم يجب التأدب

مع الحق وأهله، وإن كان سبب الكره رغبتهم في الظلم والشهوة؛ فالواجب معرفة مغبة الظلم والشهوة وأنها تكون أعظم جرماً إذا أدت إلى الكفر بالحق وأهله، وعلى صاحب ذلك أن يجاهد نفسه في رفض الظلم والشهوة، وإذا لم يترك الظلم والشهوة فعلى الأقل أن يعترف بينه وبين نفسه أنه على باطل، فلا يَغُشُّ نفسه ولا يُزَوِّر الحقائق لأجل انحرافه ومَيْلِه إلى الباطل، كما عليه أن يجاهد نفسه فيمنعها من السخرية أو من كلمات تؤيد مَيْلَه الباطلَ وكُرهَه للحق.

ـ الغفلة عن تَذَكُّر الحق:

قد يكون الإنسان عارفاً بالحق قادراً على إدراكه، يسمع الحق فلا يقيم له وزناً ولا يعرف له قدراً، يتناساه، ولا يُذَكِّر نفسه به، ولا يحب ذِكره وسماعه، وإذا تذكره أعرض عنه، وتشاغل عنه، فذلك غافل القلب، قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١-٣]، فكانوا كالذين لم يعرفوا الحق بسبب ما شغلوا أنفسهم به من اللهو والباطل والهوى والشهوات.

علاج الغفلة القلبية:

الخروج من الغفلة التي توصل إلى الكفر يكون بالتذكر للحقائق الكبرى التي يجب أن تعتقد، لذلك ينبهنا الله كثيراً إلى التذكر بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨]، والآيات من مثل ذلك كثير، وهي تشمل التذكير العقلي والقلبي، لتعرف بالحقائق من لم يعرفها ولم يفكر بها، ولتذكر قلب من يعرفها وينساها.

والإنسان الذي لا يستعمل قلبه في التذكر فكأنه من غير قلب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وهل تجد أحداً لا يستعمل يده أو عينه أو أذنه؟ ولو لم يستعملها لربما فاته بعض الفوائد، لكن الذي لا يستعمل قلبه تفوته كل الفوائد فهو أعجب من ذلك، فإن القلب أهم ما في الإنسان ففيه عقله وعواطفه وتوجهاته، وبه نجاته أو هلاكه.

والقرآن والسنة ذكرا من أعضاء الإنسان مرات قليلة، بينما ذكرا القلب مئات المرات، تنبيهاً إلى أهميته.

والتذكر لا يمكن أن يكون بلا إنابة ورجوع إلى الحق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى بعد أن ذكر بعض الآيات الدالة عليه في الكون: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقد أنزل الله القرآن ليذكرنا ويخرجنا من غفلتنا فمن قرأه متدبراً متفكراً منتبهاً بقلبه تذكر، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، ولا يمكن أن يتذكر القلب ويخرج من غفلته حتى يخرج العقل من غفلته لذلك كانت الذكرى مختصة بأهل الإيمان ومن قصد الإيمان بالحق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت:٥١].

ومن أهم أسباب الغفلة حب الدنيا أكثر من الآخرة، والانشغال بها عن الحق:

ـ استحباب الدنيا:

وحبَّ الدنيا إذا تمكن من القلب يمكن أن يصل إلى حدٍّ يُعْرِضُ بسببه الإنسانُ عن الله وعن الآخرة، فيصل إلى الكفر والإنكار والإعراض من شدة

تعلقه بالدنيا وشهواتها من مال وجاه ولذات، فلا يطلب هداية ولا يهتدي، ولا يلتفت إلى تذكير ولا يفكر، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨]، ومحل الاستحباب هو القلب، فكانوا كافرين وغافلين بسبب تقديم الدنيا على الآخرة وحبها أكثر من الآخرة.

وعلاج ذلك: تذكر قيمة الدنيا وما فيها من شهوات والتفكير في حقيقتها، والانتباه إلى أنها إلى فناء وانتهاء، وأنها محل عمل واختبار وابتلاء، توصل إلى محل الجزاء والحساب والبقاء.

ـ قبول وساوس الشيطان والانخداع بغروره وأمانيه الباطلة:

إن من وظيفة الشيطان أن **يخدع** الإنسان **ويَغُرَّه ويُزين** له، فإذا فشل في **إقناع الإنسان بالباطل** أو **التشويش** عليه؛ فإنه لا ييأس من أن يزين له الباطل ويجمِّلَه له، ويوسوس للإنسان **بالتسويف** وتأخير التوبة، **ويغريه بالأماني** الكاذبة، **وينسيه** الحق ويشغله عنه بوساوسه، **ويخوفه** من الفقر لينشغل بالدنيا عن الآخرة.

كل ذلك يؤثر به على قلب الإنسان فيبعده عن الحق، ويضله ويصرفه عن خيره، والشيطان من خلال هذه الأمور يستطيع أن يوصل الإنسان إما إلى الكفر، وإما إلى المعصية والفسق.

وقد أخبرنا الله عن ذلك كله في كثير من الآيات، تحذيراً من خطر الشيطان ووساوسه في القلب، وهذه بعض الآيات في ذلك:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، والغَرور الخادع هو الشيطان.

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ووساوس الشيطان محلها القلب الذي في الصدر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٥]، وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت لأنقلب[1]، فقام معي ليَقْلِبَني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» فقالا:

---

(١) أي لأرجع إلى بيتي.

سبحان الله يا رسول الله[1]، قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً» أو قال: «شيئاً»[2]، فما يقذفه الشيطان في القلب قد يجد تصديقاً فيؤثر في نفس الإنسان، ويثير عنده الشر والشك، وإذا حصل الشك في رسول الله ﷺ فقد كفر الإنسان؛ لذلك حرص النبي ﷺ على أن يخبرهما بمن معه حتى لا يقعا في الكفر نتيجة وسوسة الشيطان.

وعلاج ذلك:

١. أن يعلم الإنسان أن الشيطان عدو مبين، يتربص به الشر والسوء والإضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، والعدو لا ينصح أعداءه، فوجب الحذر من كل خاطر يأتي من الشيطان، والحذر مِن كل خاطر يَرِدُ في النفس يُحتمل أن يكون من الشيطان.

٢. قد تأتي وساوس الشيطان إلى الإنسان، ويندفع إلى العمل وِفْقها، من غير أن ينتبه إلى أنها وردت من الشيطان، فوجب على المسلم أن ينتبه إلى خواطره، ويميز الخير والشر منها وفق علم الشريعة، فيُقرُّ الخير الذي حكم به الشرع الحنيف بقلبه، ويحاول أن يسعى فيه عملاً، ويردُّ الشر الذي أنكره الشرع بقلبه ويرفضه وينكره، ويمتنع عن العمل به، كما قال النبي ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب، عوداً عوداً كالحصير، فأي قلب أشربها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء»[3].

---

(١) أي: ما نَشُكُّ فيك يا رسول الله، فلِمَ تحرص على أن تخبرنا بهذا.

(٢) أخرجه البخاري ٣١٠٧ ومسلم رقم ٢١٧٥، ولفظ البخاري: «سوءاً» بدل «شراً».

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٤٤ عن حذيفة رضي الله عنه.

٣. وكلَّما شعر المسلم بوسوسة من الشيطان؛ استعاذ بالله منه، ولجأ إلى الله لِيرُدَّ عنه كيد الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

٤. أكثر مداخل الشيطان إلى النفس إنما تدخل من شهوات النفس، فما كان للنفس فيه رغبة وشهوة؛ استطاع الشيطان أن يوسوس فيه ويزين، وأما ما كانت النفس تزهد فيه؛ فمهما وسوس الشيطان فيه فإن الإنسان لا يبالي بهذا الوسواس، ويستطيع أن يرده بسرعة وينصرف عنه، لذلك وجب الحذر من شهوات النفس، ووجب الزهد في ما أمر الله بالزهد فيه، والزهد إنما يأتي نتيجة معرفة هوان الدنيا وما فيها، ونتيجة معرفة أن هذه الشهوات تفسد مصالح الإنسان في الآخرة والجنة، فمهما كانت الشهوات في ظنه مفيدة ولذيذة؛ فهي خسارة في الآخرة وعذاب وهوان.

ومن تجرد عن أهوائه، وكان عبداً لله حقاً؛ فإن الشيطان لا يستطيع أن ينفُذ إليه ولا يتسلط عليه ولا يغويه ولا يأمُرَه، لأنه لم يبق فيه شهوات تغريه وتغلبه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

٥. إذا جاء خاطر يُسَوِّف الخير والتوبة، فعلى المسلم أن يرفضه، وعليه أن يسارع في الخير والتوبة، ويعلم أن تأجيله إنما هو دعوة من عدوه، فلا يُطِعْه.

فالشيطان يزين لك اليوم وغداً يتبرأ منك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٦. ما دام من أعمال الشيطان وأهدافه أن يدخل النسيان علينا، فعلينا أن نكون ذاكرين لله، ذاكرين لأحكام الله، فلا ننتظر أن يُدخل الشيطان الخواطر المنسية على قلوبنا، بل نحرص ابتداءاً على أن نكون ذاكرين متذكرين، نشغل قلوبنا وألسنتنا بذكر الله، ونحرص على الحضور والمراقبة، ونتكلف ذلك بحسب وسعنا، حتى لا ندع محلاً للشيطان، ولا وقتاً يجد فيه فراغاً فيدخله، وبذلك يكون الذكر سبباً في الحفظ من الشيطان، كما أخبر النبي ﷺ، في الحديث الذي يخبر فيه عن خمسة أوامر أمر الله بها يحيى عليه الصلاة والسلام أن يأمر بها بني إسرائيل فكان منها: «وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِى أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، **كَذَلِكَ الْعَبْدُ لاَ يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِذِكْرِ اللهِ**»(١).

٧. إذا كان من واجب المسلم أن يحذر من المعاصي والذنوب، لأنها مخالَفةٌ لأمر الله، وخوفاً من عقابه عليه، فأيضاً يجب على المسلم أن يحذر من المعاصي لأنها تكون سبباً في تسلط الشيطان على الإنسان واستدراجه إلى مزيد من المعاصي والبعد عن الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فمن أراد أن يكون محفوظاً من الشيطان فلا بد أن يكون بعيداً عن المعاصي.

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي في جامعه رقم ٢٨٦٣ وقال: حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٣٠ وابن خزيمة في صحيحه رقم ١٨٩٥ والحاكم في المستدرك رقم ١٥٣٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين.

٨. كثير من تزيين الشيطان وخداعه يدخل فيه إلى الإنسان من الجهل، فمن عرف حقائق الأمور وعرف أحكام الله؛ لم يكن من السهل على الشيطان أن يزين له وأن يخدعه، فاحرص على طلب العلم الذي أوجب الله علمه.

المطلب الثالث

من أعمال الجوارح التي قد تؤدي إلى الكفر وعدم الوصول إلى الهداية

إن أعمال الجوارح من المعاصي والمنكرات قد تؤدي إلى عدم القدرة على الوصول إلى الهداية، من خلال تأثيرها على القلب، كما قال الله تعالى في الكافرين الفجار أهل الجحيم[1]: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، فبين أن أعمالهم وكسبهم هي التي كانت سبباً في وجود الران والغطاء على قلوبهم، وقوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ مع ما قبلها من الآيات تدل على أن الذي استوجب لهم رتبة الكفر ودخول النار هو هذا الذي أصاب القلب، والذي أصاب القلب إنما أصابه بسبب أعماله وكسبه واعتدائه وتكذيبه.

والأصل في معاصي الجوارح أنها من الفسق، لكن بعضها قد يصل بالإنسان إلى حد الكفر ويؤدي إليه، فيعاقب العاصي بالحرمان من الهداية، أو يطرد من الإيمان إلى الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فهدد الله المخالفين العاصين باحتمال إصابتهم بفتنة، والفتنة تأتي في القرآن أحياناً بمعنى الفتنةِ عن الدين، بأن يُصرَف الإنسان عن الإيمان إلى الكفر بسبب مخالفاته وفجوره.

وهذه نماذج مما أخبر الله ﷻ ورسوله ﷺ عنه من ذلك:

(١) فالآيات جاءت في سياق الكلام عنهم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ٧-١٧].

ـ قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، بين سبحانه أن سبب إضلالهم وخسرانهم راجع إلى أعمال ومعاصي جسدية.

ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، فرتَّب الله احتمال أن تحبط الأعمال على هذا العمل، وهو أمر مرتبط بأمر قلبي وهو التكبر على النبي ﷺ، فإن وجد هذا مع ذاك حصل به الكفر.

ـ وقال تعالى في شرب الخمر والمُسْكِرات والمخدِّرات: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، فالله تعالى لم يقبل لنا شيئاً يذهب عقولنا ويغيبها، إذ بقاؤها سبب في بقاء الهداية، ومن رضي بزوالها فقد رضي بالباطل والانحراف عن الحق، ويمكن بذلك أن يصد عن ذكر الله وفرائضه، وشرب هذه المسكرات من أعمال الجوارح لكنه قد يؤدي إلى الكفر من خلال الصد عن الله وعن ذكره وحكمه.

ـ وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ * كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠]، فرتب الله تعالى لعنه وسخطه وخلود النار على أعمال بعضها قلبية وبعضها من معاصي الجوارح، إشعاراً بمشاركتها وأثرها في النتيجة.

ـ وقال رسول الله ﷺ: «يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي

مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1]، فأخذ شيء من المال، وهو من أعمال الجوارح سبب وقوعهم في الكفر، وهو مرتبط بأمر قلبي، وهو رغبتهم بالمال والدنيا وحرصهم عليها وتقديمها على الآخرة.

(١) أخرجه مسلم رقم ١١٨.

خاتمة المبحث

ـ مما مر في هذا المبحث يتبين لك أن الإنسان قد يفوت الهداية على نفسه حينما لا يستعمل عقله، أو حينما يرضى بالجهل، أو حينما يقلد بغير علم ولا حق، أو حينما يتبع هواه.

ـ كما يتبين لك أن العقل وما يدركه من علم وما يعرفه من حقائق؛ لم يكن مانعاً وحده من الانحراف، إذا انحرفت وِجهة القلب ومالت عن الحق، وأنت ترى كم هي خطورة ذلك عظيمة، فأمراض القلوب ليست مجرد معاصٍ أو تؤدي إلى معاصي، بل قد تكون سبباً في الكفر، كما رأينا، أعاذنا الله منه.

ومن خلال ما ذكرناه ومن خلال هذه الأمثلة يتبين لك أن القلب هو المُعَوَّلُ عليه في الهداية، ولا يكفي العقل والعلم، وإن كان لا بد من استعمال العقل.

وسلامة القلب مع عدم وصول العقل إلى الحقائق لا ينتج عنه الهداية المطلوبة، فلا بد من وصول العقل إلى العلم الحق، مع سلامة القلب، حتى تحصل الهداية.

ـ وإذا وُجِد العلمُ بالحقائق يمكن أن يتجه القلب اتجاهاً صحيحاً أو خاطئاً، ووجهته التي يقررها ويريدها ويشاؤها هي التي تحدد الصلاح والتزكية، أو الفساد والتدسية، وهذا ما أخبر الله تعالى به، وقرره لنا النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩، ومعنى الحديث: إذا صلح دين القلب صلح دين الجسد.

وهذا أيضاً ما بينه النبي ﷺ فيما رواه حذيفة عن النبي ﷺ قال حذيفة: «حدثنا[1] أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال **ثم علموا** من الكتاب ثم علموا من السنة»[2]، فمعرفة الحقائق الثابتة والعلوم وما يدركه العقل ـ ولو كانت من الكتاب والسنة ـ لا بد أن يسبقها أو يرافقها ـ حتى ينتفع منها الإنسان ـ قلبٌ سليمُ الوِجْهة طاهرُ الطَّوِيَّةِ طالبٌ للحق راغبٌ فيه، محبٌّ للخير ساعٍ إليه، وقد عبّر النبي ﷺ عن طهارة القلب ونقاء الضمير والفطرة السليمة والاستعداد للإيمان بالأمانة[3].

ـ يا من تريد الهداية لا تكن كاذباً على الله ولا مستكبراً عليه ولا مستكبراً عن الأخذ بأحكامه، ولا تكن مفسداً مُضِلاً مجرماً ظالماً، ولا تكن متردداً ولا غافلاً ولا معرضاً عن الحق، ولا تكن عاصياً لربك، لا تدَّعِ معرفة الحق وأنت تجهله فتفضح في الآخرة، وتكون قد خسرت الحق ونفعه وخيره، ابحث عن الحق، وكن محباً له، وابحث عن مصلحتك الحقيقية في الدنيا والآخرة، لا تحرم نفسك الخير، ولا تضيع فرصتك، ذِلَّ اليوم لله وللحق الذي أنزله إليك خير من أن تلازم الذل في الآخرة، قال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي

---

(1) أي النبي ﷺ.

(2) جزء من حديث أخرجه البخاري ٧٠٨٦ ونحوه مسلم ١٤٣ عن حذيفة رضي الله عنه.

(3) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ج ٢، ص ١٦٨: «أما الجَذْر فهو بفتح الجيم وكسرها لغتان وبالذال المعجمة فيهما، وهو الأصل... وأما الأمانة فالظاهر أن المراد بها التكليف الذى كلف الله تعالى به عباده، والعهد الذى أخذه عليهم... وقال صاحب التحرير: الأمانة فى الحديث هي الأمانة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] **وهي عين الإيمان، فاذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وجَدَّ في إقامتها**، والله أعلم».

كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٤]، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧].

المبحث الثالث

أثر تزكية العقل واستقامة الفكر في تزكية النفس في سائر جوانبها

ـ تدل النصوص على أن طريق الهداية يبدأ من القلب، «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهي القلب»، وتدل نصوص أخرى على أن الجانب الذي إذا فاتت العناية به فاتت الهداية والخير والصلاح هو جانب العقل في القلب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، فالذين لم يستعملوا عقولهم استحقوا الرجس وهو عدمُ الإيمانِ والهداية والصلاح، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ـ إن لكل جانب من جوانب تزكية النفس أساساً عقلياً يرجع إليه، وينبني عليه، قال الخطابي رحمه الله: «والعقل أمير النفس، لأنها إذا أرادت أمراً راجعته»(١)، فما يعقله العقل ويدركه من الحقائق والعلوم هو الأساس لسواه، ففي هذه الحقائق أساس يقتضي الإيمان بها، وفيها أساس للقلب، فتنبني توجهات القلب ورغباته على الحقائق التي اقتنع بها الإنسان، وفيها أساس للرجوع إلى حكم الله، وفيها أساس للعبادات، وفيها أساس للأخلاق، وفيها

(١) غريب الحديث ج ١ ص ١٢٢، للإمام حَمَد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، نشر جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ١٤٠٢.

أساس للمعاملات، وفيها أساس للحضارة التي يجب أن تكون في البشرية، وغير ذلك[1].

ـ إن الحقائق المعقولة هي التي يجب أن نؤمن بها ونصدق بها لأنها حق ثابت، والمعرفة بأنها حقائق يقتضي التصديق بها والإيمان بها، ومالم يكن الإيمان بها موجوداً فلا قيمة لمعرفة هذه الحقائق ولا قيمة للعلم بها.

وما لم يكن إيمانٌ فلا تزكية، وأعلى التزكية أن تطهر اعتقادك من الباطل، وكيف تزكو نفس وهي تُنكِر الحقائق العظمى في الوجود: كحقيقة وجود الله وألوهيته وربوبيته وصفاته، أو حقيقة إرسال الرسل وإنزال الكتب، أو حقيقة اليوم الآخر.

لذلك كان أهم الأعمال عند الله هو الإيمان، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[2].

وإذا وجد الإيمان فعنه يمكن أن ينشأ ما سواه، من عبادة وأخلاق ومعاملة صحيحة، وإذا لم يوجد الإيمان فلا قيمة لما سواه[3]، فلو أن إنساناً صلى وصام وحسَّن

(١) وسنبين ذلك من خلال موضوعات الكتاب، ونبين كثيراً من ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٦، ومسلم رقم ٨٣.

(٣) أي لا ينتفع الإنسان من وجود الأخلاق والمعاملات والعبادات مع الكفر، ويحبط أجره فيها، فلا تحصل له بها تزكية إيجابية، ومع ذلك فكونه يعملها قد تشغله عن غيرها من الباطل، فيكون أقل سوءاً، إذ قد يكف بذلك عن المجتمع شر اشتغاله بالباطل، فيكون تأثيره السلبي على المجتمع أقل من هذا الوجه، ويكون شره أدنى ممن يتعامل معاملات باطلة، ويتخلق بأخلاق فاسدة، فيؤذي بها المجتمع أو يفسده.

أخلاقه، لكنه كان يؤمن بالباطل؛ ما فائدة عبادته وخُلُقه؟ لن يستفيد منها شيئاً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۞ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۞ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢١-٢٣].

وقد بين الله تعالى في آيات كثيرة أن الإيمان إذا لم يكن موجوداً فلا قيمة لأي عمل بعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

إذن أول ما نزكي به أنفسنا ونتنبه إليه هو شأن الاعتقاد[1] والإيمان بالحقائق المعقولة، حتى نكون مقرين لله بالربوبية والألوهية وسائر صفاته التي تليق بكماله وجلاله، ولذلك كانت الخطوة الأولى في تزكية النفس هي معرفة العقائد الحقة، ومعرفة أدلتها، والإيمان بها.

---

(١) يسمى العلم بتلك المعلومات التي يجب أن يعقلها الإنسان ويؤمن بها علم العقيدة، وإذا اعتقدت النفس تلك المعلومات الصحيحة، فذلك من تزكية النفس، من حيث أن النفس ـ في فكرها وعقلها ـ لم تتعلق بباطل وشر وفساد، وإنما تعلقت بحق وخير.

وبناءاً على ما سبق فإن أهل أيِّ دين أو ملة مهما وجد عندهم من الأخلاق والمعاملات الحسنة وأوصاف التزكية؛ فإنها ما لم تكن مبنية على الاعتقاد الحق في الله فهي صورة تزكية، لكنها ليست حقيقة ولا قيمة لها عند الله، لذلك لا تُتَصور التزكية مع دين غير دين الحق، فلا تزكية لكافر على أي ملة كان، مع وجود عقائد باطلة عندهم، ومع عدم خضوعهم وإذعانهم للإسلام الحق.

ـ وقد بين الله تعالى أن الإيمان هو الأساس في الهداية، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ(١)﴾ [التغابن: ١١]، فالإيمان بالله أساس الهداية والصلاح والتزكية.

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ (٢) تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩].

ـ ربط القرآن بين العقيدة وبين أحكامه التي بها تزكية النفوس:

لقد قرن الله إقامةَ الأحكام المختلفة في العبادات والمعاملات والأخلاق بالإيمان، فنجد كثيراً من الأحكام يبدأ الأمر بها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) والاستدلال بهذه الجملة من الآية على الوجه الذي ذكرناه؛ استدلال بعموم اللفظ، أما تفسيرها بحسب سياقها وهو قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١] فهو كما روى الطبري في تفسيره ج ٢٨، ص١٢٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ يعني يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

(٢) ذكر الطبري في تفسيره ج ١١، ص ٨٩ في تفسير هذه الجملة: «عن مجاهد في قول الله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]، قال: يكون لهم نوراً يمشون به»، وذكر القرطبي في تفسيره ٨/ ٣١٢ من تفاسيرها: «أي يزيدهم هداية كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧]»، وقد ذكر المفسرون معاني أخرى منها: أن أعمالهم وإيمانهم يكون نوراً وهادياً لهم يوم القيامة إلى منازلهم وجنانهم.

ءَامَنُوٓاْ﴾، فما لم يكن عند الإنسان إيمانٌ بالحقائق والعقائد التي تدركها العقول؛ فلا يمكن أن يتجاوب مع أمر الله وحكمه، والتزكية إنما تتم ـ بعد الإيمان والاعتقاد السليم ـ بإقامة الأحكام على وجهها الذي شرعه الله، وهذه نماذج من ربط الأحكام بالإيمان:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، فوجه الأمر بالوضوء إلى المؤمنين، لأن غيرهم لا يقبل الأمر، لعدم وجود الإيمان.

وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣]، فوصف أهل الإيمان بأنهم هم الذي يفعلون الأحكام من صلاة وإعراض عن لغو وزكاة وحفظ للفروج وغير ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فما لم يكن عند الإنسان إيمان بالحقائق الكبرى كالإيمان بوجود الله وحسابه في الآخرة؛ لا يمكن أن يوجد التزام تام بمثل هذا الحكم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فوجه الخطاب إلى أهل الإيمان أن يكونوا متخلقين بالصبر من خلال التَّصبر والتحمل والرجوع إلى الله بالصلاة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، فوجه الخطاب بترك الربا إلى المؤمنين، ثم ختم الآية بما يدل على أن من كان مؤمناً لا يمكن أن يتخلف عن هذا الأمر الرباني.

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ

﴿فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]، فمن آمن بالحق لا يمكن أن يتخلف عن حكم الله مهما كان مظهره شديداً، لأنه يعلم أنه حكمٌ حقٌّ من الحق سبحانه، فيه المصلحة والخير في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٣٨-٤٠]، فربط بين علمك بأن الملك لله وأنه قادر عليك وبين وجوب امتثالك لأمره في إقامة الحد على السارق المجرم المروع للآمنين والمعتدي على مال غيره بغير حق.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، فوجه الأمر لأهل الإيمان بالتفكر فيما أعدوا لآخرتهم، فلا تقوم هذه العبادة من غير مقدمات إيمانية يدركها العقل.

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١-٧]، فانظر كيف ربط في هذه السورة بين عبادات ومعاملات وأخلاق وبين الاعتقاد والإيمان باليوم الآخر، فالذي يكذب بيوم الدين يصدر عنه إهمال الصلاة وإيذاء اليتيم ومنع المسكين ومنع الماعون، والرياء بأن يقصد الناس في الأعمال.

وفيما يلي نبين ما هي نتائج الفكر الصحيح، وهي المعقولات التي تنتج عن استعمال العقل على الوجه الصحيح، المبنيِّ على قواعد تزكية العقل التي ذكرناها، وسيتبين لنا من خلالها منطقية البناء التزكوي، وابتناءه على الحقائق المعقولة، وعلى الإيمان بها.

الفصل الثالث
المنهج الفكري

وفيه عشرة مباحث:

- **المبحث الأول**: من خلقني ؟ من أوجدني ؟ وما هي صفاته ؟
- **المبحث الثاني**: مكانة النبي محمد بن عبد الله ﷺ، ما هي أدلة صدقه ؟ ولماذا نتبعه ونطيعه ؟
- **المبحث الثالث**: من أنا ؟ ولماذا خُلِقْتُ ؟ وما هدفي ؟
- **المبحث الرابع**: ما هذه الحياة التي نعيشها ؟ وهل تصلح هدفاً ؟ وكيف نستعملها؟
- **المبحث الخامس**: ماذا بعد هذه الدنيا ؟ أين المآل والمرجع ؟ ما هو اليومُ الآخرُ؟
- **المبحث السادس**: ما هي الأحكام والقوانين التي تضبط علاقاتي، وأسير عليها في حياتي ؟
- **المبحث السابع**: كيف أتعامل مع الخلق والكون على وجه المصلحة.
- **المبحث الثامن**: ما هو الحد الأدنى من الثقافة والعلوم التي نحتاجها في حياتنا؟
- **المبحث التاسع**: ما هي العلاقة الأهم في حياتك ؟ وماذا ينبني على مراعاتها ؟
- **المبحث العاشر**: قدر النبي محمدٍ ﷺ، ولماذا نحبه أكثر من غيره من الخلق ؟

المنهج الفكري

وهو ما يجب أن يعرفه المبتدئ

وإذا عرفه واقتنع به واعتقده فقد قام بحق تزكية عقله وفكره

تمهيد:

ـ إن من واجب الإنسان أن يبحث عن أهم الحقائق في هذا الوجود الذي يعيشه:

فيسأل نفسه من أنا؟

ولماذا وُجِدْت؟

وإلى أين مصيري؟

من أوجدني؟

وماذا يريد مني؟

ما حقه عليّ؟

ما هذه المخلوقات التي خلقت معي من البشر والكون؟

وما موقفي منهم؟

وكيف أتعامل معهم؟

ومن سأل نفسه هذه الأسئلة وغيرها، ووجد الإجابة الصحيحة، من خلال الوسائل الصحيحة التي توصل إلى معرفة العلم والحقائق، ثم بنى عليها حياته، فهو العاقل وهو المصيب، الذي يفكر بطريقة صحيحة، ويعمل عملاً صحيحاً وسليماً.

ومن تجاهل هذه الأسئلة وتجاهل إجاباتها التي تمثل أهم الحقائق في الوجود؛ فإنه يبنى حياته على غير هدى، ويضيع عمره فيما لا ينفعه، بل ربما يمضيه فيما يضره وفيما تكون عاقبته وخيمة سيئة.

والوسائل الصحيحة التي توصل إلى العلم والمعرفة: هي العقل السليم، والحواس السليمة، والخبر الصادق، والاستفادة من الحواس كالسمع والبصر مفتقر في تحصيل العلم إلى العقل، وكذلك الخبر الصادق(١).

فما هي تلك الحقائق والمعلومات التي يجب أن يعلمها كل إنسان، وإذا علمها المبتدئ في تزكية نفسه كانت أساساً في توجيه حياته وبناء تزكيته؟

هذا ما نجيب عنه من خلال التساؤلات الآتية، مع نموذج من الإجابة عليها(٢)، تعرِّف بالحق وتدل عليه، ومن عرفها واقتنع بها فقد زكَّى فكره وعقله، وبها يخرج من غفلة العقل عن الهداية والحق، فيتولد عند الصادق بناءاً عليها طلب للحق والخير والنفع والهدى.

وإلى بيان **أهم حقائق الوجود:**

---

(١) وهذه أمور بينها علماؤنا في كتب العقائد، وإنما أردت الإشارة إليها للتنبيه، لكن لا بد من تقييد كلامهم بما سبق ذكره من أن الإنسان قد يضل عن الحق والهداية على الرغم من وجود العلم ووجود أسبابه ووسائله، بسبب مرض قلبي أو غيره، لذلك تجد أن العقلاء ـ غير المجانين ـ قد يختلفون في حقائق، لا لأن العقل يختلف فيها، بل لتلك المؤثرات مِنْ فساد القلب، فسنة الله أن يصرفه عن الحق فلا يدركه، وقد يكون هذا العاقل المكلف مستيقناً بالحق عارفاً به، لكنه يكذب به ويظهر خلافه، فهو ليس بالخلاف العقلي الحقيقي، وإنما لأمر خارج عن العقل، وقد يكون الاختلاف بين العقول في مسائل بسبب بنائها على الحواس أو الخبر، فإذا أخطأت الحواس أخطأ حكم العقل، وإذا قَبِل خبراً ظنَّه صادقاً وهو ليس كذلك؛ فيكون حكم العقل المبني عليه خطئاً.

(٢) وإنما اعتبرت هذه نماذج للإجابة، لأنها قد لا تستوعب كل ما يتعلق بموضوعاتها، فما أذكره لا يغني عن دراسة علم العقائد.

المبحث الأول

من خلقني؟ من أوجدني؟ وما هي صفاته؟

ـ من الطبيعي في فطرة البشر، ومن المنطقي في عقليتهم؛ أنهم إذا وجدوا شيئاً جديداً تبادرت أذهانهم وعقولهم إلى السؤال: من أين هذا، فإذا دخلتَ بيتك فوجدت ثلاجة جديدة أو إبريقاً جديداً ـ لم تأت بها أنت، ولم ترها في بيتك من قبل، ولم يكن عندك علم سابق بأنها ستأتيك ـ فأول ما يخطر في بالك أن تقول: من جاء بها؟ ولا يقبل عقلك التصور بأنها وجدت هكذا صدفة، أو جاءت بنفسها من غير سبب ومسبِّبٍ أتى بها.

والإنسان الفطري العاقل، حينما يبلغ سن العقل والتفكير، فمن الطبيعي أن يتساءل ما هذا الكون الذي حولي؟ من أوجده؟ ما هؤلاء الناس؟ ومن جاء بهم؟ من أنا؟ وما الذي أوجدني؟

وليس من الطبيعي أن تسأل عن إبرة تحركت من مكانها: من حركها، ثم لا تسأل عن هذا الكون كله من يحركه؟ ومن أوجده؟

وليس من المنطقي أن تقول: إن هذا الكون وُجِدَ صدفة، وأنت ترى من المستحيل أن يرمي عشرةُ رجال عشرةَ أحجارٍ فتترتب كلَّ مرةٍ الترتيبَ نفسَه صدفة، فإذا كنت لا تقبل هذه الصدفة الصغيرة، فكيف تقبل أن يأتي الكون منظَّماً بكل أفلاكه وأجرامه وذراته مرتباً صدفة؟ والصدفة ليست شيئاً حتى تصنع شيئاً، فكيف تصنع مليارات المليارات من عوالم النظام، وهي عدم.

هذه قاعدة السببية هي القاعدة العقلية الفطرية الأولى والبدهية الأولى التي يحتاج الإنسان أن يفكر من خلالها ليستدل على ضرورة وجود خالق لهذا الكون.

ـ فيقوده التفكير من خلال هذه القاعدة إلى ضرورة إثبات مُوجِدٍ لهذا الكون خالقٍ له، فيتساءل أين هذا الخالق؟ ومن هو هذا الخالق؟

يتطلع عقل الإنسان إلى معرفة هذا الخالق، وقد يتطلع إلى رؤيته أو الإحساس به إن أمكن، ولكن مهما حاول الناس أن يبحثوا عن هذا الخالق عن غير طريق العقل، أو يصلوا إلى الإحساس به، أو إلى رؤيته؛ فإنهم يعجزون ولا يستطيعون، فقد يتطاول بعضهم إلى إنكار وجود هذا الخالق، لأنه لم يره ولم يحس به؟

والخالق يستحيل أن يكون من جنس المحسوسات، لأن مَنْ يكون محسوساً مُجَسَّماً محدوداً بالمكان فهو يُشبِه الخلقَ ويتصف بصفة من صفاتهم، فلا يكون هو اللهَ الخالِقَ، واللهُ قد أَعْجَزَ الخلقَ عن رؤيته في الدنيا[(١)].

فهاهنا يحتاج العقل إلى قاعدة عقلية أخرى، حتى لا يصل إلى تصور خاطئ، فيدعي عدم وجود الخالق؛ لعدم الإحساس به أو رؤيته، هذه القاعدة البدهية هي قاعدة الإيمان بالغيب، وهي أن العقل يُثبِت وجود أشياء لا يراها ولا يحس بها، وإنما يثبتها نتيجة رؤيته أو إحساسه بآثارها وآثار وجودها.

فالكهرباء إنما عرفناها بآثارها، فنحن إنما نرى أسلاكاً ولا نرى ما فيها من الكهرباء، ولكن ما ينتج عن هذه الأسلاك من حرارة أو طاقة أو إضاءة أو حريق هي آثار تدل على وجود شيء غير مجرد الأسلاك، سماه العلماء الكهرباء، آمنا بها ولم نرها ابتداءاً.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٦٩عن عُمَرَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ عن بَعْض أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ حَذَّرَ النَّاسَ الدَّجَّالَ: « إِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ، أَوْ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَقَالَ: **تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ** ».

والهواء والريح لم نره ولا تراه العين، لكن آثاره في التنفس وآثاره في تحريك الغيم والغبار والشجر وأصواته؛ تجعلنا نؤمن بوجوده ونحن لم نره ابتداءاً.

وعقل الإنسان لا نراه، فلا نرى حقيقة التعقل كيف تجري في العقول أو القلوب، لكنا نؤمن جميعاً ونوقن أن للناس عقولاً يعقلون بها ويفكرون، لما نرى من آثار هذا التفكير في التوصل إلى إدراك كل شيء.

وهذه أمور مخلوقة لم يستطع الإنسان أن يحيط بها، ولم يستطع الاهتداء إلى وجودها إلا من خلال آثارها.

والعقل هو الذي به أدرك الإنسان وجود هذه الأشياء من خلال معرفة آثارها والإحساس بآثارها.

فهل يصح للعاقل أن يرفض الإيمان بوجود الخالق لأنه لم يره ولم يحس به، على الرغم من أنه يرى آثار قدرته وآثار هدايته، وغير ذلك من الآثار الدالة على وجود الخالق[1]، تلك الآثار التي لا يقدر على تأثيرها أيُّ مخلوق نعرفه، ولا يمكن أن يَتصوَّر العقلُ وجودَها إلا برَدِّها إلى خالق قادر لا يُقيِّد قدرتَه شيءٌ.

كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهل يقدر أحد من المخلوقين على أن يحرك الشمس أو القمر هذه الحركة؟ وهل يقدر أحد من المخلوقين على أن يوجدها أصلاً؟ فليس للإنسان إلا أن يعترف بوجود خالق قدرته أعظم من كل المخلوقين.

---

(١) انظر أهم تلك الآثار والظواهر، وكيف تدل بوضوح على وجود الله؛ في كتاب «الله جل جلاله» تأليف والدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله.

ـ وهكذا فما مِنْ تساؤل يتساءله الإنسان عن الخالق؛ إلا وقد جعل الله في عقل الإنسان من البدهيات ما يدرك به الجواب الصحيح عن خالقه ووجوده وصفاته، فمن يستعمل عقله السليم وفكره المنظَّم؛ يعلم قطعاً أن الكون بما فيه من مخلوقات بشرية وجمادات وغيرها لا يمكن أن توجد بنفسها من غير موجِد، هو الخالق وهو الله.

ـ ومما يصل إليه العقل ويدركه عن الخالق: أن هذا الخالق لابد أن يكون **متصفاً بصفات:**

لا يمكن أن يكون الخالق مخلوقاً مثلَ المخلوقات، لأنه لو كان مِثلَ المخلوقات؛ لكان محتاجاً مثلهم إلى غيره، فيكون محتاجاً هو والكون إلى خالق آخر، فيكون غيره هو الخالق، ولا يكون هو خالقاً، والخلق مفتقرون إلى الخالق القادر، لا إلى المخلوق العاجز، فلا بد أن يكون الخالق الموجود هو واحد غير مخلوق وغير مفتقر إلى غيره، وكل ما سواه مفتقر إليه، فيكون هو الذي خلق كل شيء، وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة، لِنَقْدُرَه قَدْرَه ونَعْرِفَ له حقَّه وفضله، فأخبرنا بأن الخَلقَ كلَّه خَلقُه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧].

وما دام هو خالق كل شيء؛ فهو **مالك كل شيء**، وكل شيء مملوك له، وقد نبهنا الله إلى هذه الحقيقة، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ [النساء: ١٢٦]، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وهو **واحد في ذاته**، لا يمكن أن يكون معه إله ولا رب ولا خالق ولا معين، لا ولد له ولا والد، وقد أخبرنا الله بذلك، وذكر أدلة عقلية على ذلك،

قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

أقام الله تعالى في هاتين الآيتين الدليل الكامل على استحالة وجود خالق آخر مع الله، فإنه لو كان موجوداً أكثرُ من خالق لحاول كل واحد أن يسيطر على ما عند الآخر فكل منهما يتلف خلق الآخر وملكه فلا يستقر خَلْقٌ مع وجود خالقين، وإذا حاول أحد الآلهة أن يفسد خَلْق الآخر فاستطاع ولم يستطع الإله الثاني رده؛ فهذا الإله عاجز، والإله الخالق لا يجوز أن يكون عاجزاً محدود القدرة، فلا يمكن أن يكون خالقاً أصلاً، وإن عجز الإله الأول عن إفساد خلقه، فهو العاجز، فلا يمكن أن يكون إلهاً، فالعقل لا يستطيع أن يتصور وجود إلهين معاً، لأنه يترتب على ذلك أمر مستحيل الوجود، وهو وجود خالق عاجز.

واحد في صفاته، فلا يمكن أن يشابهه شيء غيره، إذ غيره مخلوقاته، يتغيرون، ويجري عليهم الزمان، ويحصرهم المكان، وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وهو **الرب** فهو وحده الخالق المربي لخلقه المتصرف فيهم والممد لهم والوكيل على كل شيء وهو النافع والضار والمعطي والمانع والمعز والمذل والباسط والقابض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن

قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۞ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۞ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الأنعام: ١٠١-١٠٢]، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[آل عمران: ٢٦]، ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٣٠]، ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[الشورى:١٢]، ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

وهو **الإله وحدَه**، وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة، فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، كما بين سبحانه أنه لا ينبغي أن نتخِذَ إلهاً ولا أن نعبُد إلا الرب الخالق القادر الذي يملك الضر والنفع لغيره، وذلك أمر منطقي تدركه العقول، فخاطبنا به الله تعالى فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣]، وما دام غيره ليس برب لنا فكيف نعطيه الألوهية، وكيف نعبد غيره، وغيره عباد مخلوقون مثلنا: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣]، وقد ذكرت الآيات علامة عدم ربوبية من اتُّخِذَ إلهاً من دون الله، وهي أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يقدر على أن يخلق، وبذلك أيضاً ردَّ الله دعوى السامري وبني إسرائيل حينما اتخذوا العجل إلهاً، قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۞ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴾ [طه: ٨٨-٨٩].

وقد رد الله تعالى على النصارى ادعاءهم ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام، برد عقلي منطقي سهل، فبين أن عيسى محتاج إلى الطعام، والمحتاج إلى المخلوق لا يكون خالقاً ولا يكون إلهاً معبوداً، فهو عاجز محتاج فكيف يصير إلهاً، فقال سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، ثم رد الأمر في الآية التي تليها إلى القاعدة العامة بأن الذي لا يملك النفع ودفع الضر عن نفسه كيف يكون رباً وإلهاً لغيره، فقال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

قادر يستطيع أن يفعل ما يشاء، ولا يمنعه أحد، إذ لو جاز أن يمنعه أحد أو يعارضه لكان فوقه ولكان ربَّه، فليس الخالق إلا ذلك القادر الذي يقيد قدرة غيره، ولا يقيده غيره، ويهيمن على كل شيء، ولا يهيمن عليه شيء، ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨].

ذو إرادة ومشيئة، فلا يجوز ولا يمكن أن يكون غيره مقيِّداً لمشيئته، فإذا أراد أو شاء شيئاً تحقَّق، ولم يمنعه أحد، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وإذا لم يُرِدْ شيئاً لا يمكن أن يوجد أو يكون، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

عالم، فلا يمكن أن يجهل شيئاً وهو خالق كل الأشياء ومقدِّرها، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

غني، والعقل يدرك أن الخالق القادر الواحد لا يمكن أن يكون محتاجاً إلى غيره، ويدرك أن كل ما سواه محتاج إليه، فهو غني عمن سواه، وغيره فقير

إليه، والله تعالى أخبرنا بهذه الحقيقة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ولو كان فقيراً محتاجاً لم يكن إلهاً، ولكان محتاجاً إلى إله رب غيره، ولو افترضنا أن الإله الخالق يحتاج إلى إله خالق غيره، فلا بد أن نثبت في النهاية إلهاً غير محتاج إلى غيره، فالإله هو ذلك القادر الذي لا يحتاج غيره، فما يخطر في بال الإنسان من احتمال احتياج الخالق إلى غيره إنما هو وهم يدخله الشيطان على الإنسان، ينبغي أن يستعيذ منه، لأن العقل يقر في النهاية أنه لا بد من مُوجِد لم يوجده أحد، هو الذي خلق كل شيء، والكل مفتقر إليه، فهو الخالق الذي نثبت له صفة الألوهية.

ولأجل ذلك وجب إثبات قدمه، فهو **قديم بلا بداية**، إذ لو كان حادثاً لم يكن خالقاً، ولكان محتاجاً إلى خالق.

عَدْلٌ، لأن الغني الذي لا يفتقر إلى سواه لا يقع منه الظلم، وإنما يظلم ويعتدي على ما عند الآخرين من هو مفتقر إلى ما عندهم، والله هو الذي يعطي غيره، لا يأخذ منهم شيئاً، لأنهم لا يملكون شيئاً، والملك كله له، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وما دام عادلاً فسلم لأحكامه، ولا تخف من قضائه ومقاديره.

ـ هذه الصفات وغيرها يدرك العقل أن الخالق لا بد أن يكون متصفاً بها، وقد أرسل الله كتاباً، جاء مبيناً هذه الصفات، ومعرفاً لنا بغيرها من صفات الله مما شاء الله أن يعرفنا به، فإن المخلوق مهما بلغ من العقل والعلم؛ لا يمكن أن يعرف كل شيء عن الخالق فيحتاج إلى أن يُعرِّفه خالقه بنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧].

وحتى يكون ما جاءت به الرسالة مُصَدَّقاً؛ فقد أيد اللهُ الرسولَ الذي بلغ إلينا كلام الله وشرعه بالمعجزات، حتى لا يبقى محلٌّ للشك ولا مبرر

للتكذيب، وكان من معجزاته القرآن، الذي تحدى الله به البشر، فجعلَ هذا القرآنَ معجِزاً بلغته وهدايته وعلومه وغير ذلك[1]، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، فإذا لم يستطعِ البشرُ أن يأتوا بمثل القرآنِ أو بمثل سورةٍ منه؛ فقد ظهر أنه ليس من قول البشر، وأنه من عند الخالق، فوجب الإيمان به، لأن للخالق الحقَّ على خلقه في أن يطيعوه.

ـ وتفصيل هذه الأمور وأمثالها موجود في علم العقائد والإيمان، ولا بد أن يكون عند الإنسان معرفة بها، وأقل ما يجب معرفته منها ذلك القدر الذي يعرف به ربه ومعبوده، بحيث لا يبقى عنده شك في وجود الله، ولا تردد في شيء من صفاته، ويؤمن ويعتقد بما يَتْبَع ذلك من حق، كإرسال الرسل، ووجود الملائكة، وإنزال الكتب، وأن القرآن هو الكتاب الخاتم المحفوظ، وثبوت الآخرة، وتقدير الخير والشر من الله.

ومن كان يشك بشيء من هذه الحقائق أو غيرها؛ فلا بد أن يفكر، وأن يسأل أهل العلم، وأن يدرس العقيدة ويفهمها، ويعرف أدلة هذه الحقائق، ليزول الشك وتثبت الحقائق، وليستطيع أن يبني بناء التزكية عليها بناءاً صحيحاً.

وسنفصل بعض هذه الحقائق مما نراه مهماً في تأسيس التزكية في النفوس، بالقدر الذي لا بد من ذِكره، لتعلق معاني التزكية وأعمالها به.

---

(١) انظر في تفصيل ذلك وبيانه: كتاب «النبأ العظيم» للدكتور عدنان زرزور، وللشيخ عبد المجيد الزنداني والشيخ زغلول النجار اهتمام كبير بجانب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، يمكن الاطلاع عليه في كثير من محاضراتهما وكتبهما، والكتبُ المؤلَّفةُ في معجزة القرآن وما فيه من دلائل الإعجازِ كثيرةٌ.

كيف تؤدي الحقائق والمقدمات الاعتقادية الإيمانية إلى إنشاء التزكية في نفس الإنسان

كل حقيقة يؤمن بها الإنسان لها أثرها في نفس الإنسان وقلبه وسلوكه.

والإيمان بالله وصفاتِه له الأثر الأكبر في إيجاد التزكية والصلاح عند الإنسان في فكره وقلبه ونفسه وقوله وعمله وخلُقه، فالعقيدةُ الحقُّ هي الأساس الذي تنبني عليه التزكية.

وحتى يكون بناء التزكية صحيحاً لا بد أن تكون المقدمات الإيمانية الآتية واضحة وثابتة ويقينيةً عند طالب التزكية:

ـ قضية وجود الله، هي أعظم حقيقة في الوجود وأهمُّها، فلا بد أن نعرف هذه الحقيقة ونؤمن بها، ونعتقد بها عن دليل واقتناع، وأن نتذكرها ولا ننساها، وأن ننشيء حياتنا بناءاً عليها.

ـ وما دام الله هو ربنا وخالقنا فيجب علينا أن نتخذه إلهاً لنا نعبده، ولا نعبد غيره لأن غيره مثلُنا مفتقرٌ إلى الله، وكيف نقدم عبادة لمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف ينفعنا بعبادته.

وهذا التفكير وهذا النظر العقلي المنطقي المرتب هو الأساس المقنع للإنسان بوجوب إقرار **العبادة لله وحده**، وبوجوب الاجتهاد في إقامة العبادات له سبحانه، والعبادات هي أهم الأعمال التي تزكو بها النفس، بعد الاعتقاد الحق، وبعد وِجْهة القلب السليمة.

ـ لما كان الله هو الخالق لكل شيء، فالوجود كله له وكلُّه ملكه، ومالك الشيء أحق بأن يَحْكُم في ملكه، فالله أحق بالحكم في مخلوقاته جميعاً، أحق من

أي حاكم أو ملك أو قاضٍ أو عالم، وأحق من نفسك، لأنهم جميعاً خلقُه وملكه وعبيده، وليس أحدٌ منهم أعلمَ منه، ولا أحكم منه.

وما دام هو مالكنا وحده؛ فليس لأحد لا يملكنا أن يتدخل في طريقة حياتنا، ولا أن يحكم علينا، ولا أن يُشَرِّعَ لنا، بل المالك الخالق هو الذي له الحق في أن يحكمنا ويأمرنا بما يشاء ويشرع لنا ما يريد ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧، يوسف: ٤٠، يوسف ٦٧] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [لأعراف: ٥٤]، فالذي يخلق هو الذي له الأمر في خلقه.

ـ ما دام الله هو الحاكم الآمر، الذي يستحق وحده أن يحكم، فلا بدَّ من طاعته في حكمه باتباع أمره وترك نهيه، والاستقامةُ على ذلك هو الذي يحقق التزكية على كمالها.

ـ لما كان أمرُه واجبَ التنفيذ، ونهيُه واجبَ الترك؛ فلا بد أن **نتعلم أحكامه من الأوامر والنواهي** ونفهمها، لنُطبِّقها، وهذا العلم ينبغي أن يؤخذ من المصدر الذي أرسله إلينا والرسول الذي يبلغنا عنه، فنأخذ العلم من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ الصحيحة الثابتة عنه، ومما استنبط منهما أو بُني عليهما.

فطلب العلم راجع إلى اعتقادنا بأن الله هو الحاكم المطاع، وطلب العلم جزء مهم من التزكية، لأن العمل بما تزكو به النفوس لا يكون إلا بعد العلم به.

ـ ورجوعنا إلى القرآن الكريم وإلى الرسول ﷺ، متوقف على الإيمان بصدق الرسول، فلزم التأكد من وجود الصدق عنده، ولزم التأكد من تأييده بالمعجزة التي تقطع الشك به، أَمَا وقد أيّده الله بمعجزات لا يقدر عليها البشر جميعاً فقد انقطع الشك، ووجب الإيمان بصدقه في كل ما يَنسُبُه إلى الله ويبلغه عنه، ووجبت طاعته فيه، مما ثَبَتَ لنا صحة نسبته إليه.

ـ وحكم الله يشمل كل شيء في حياتنا، من أحكام تتعلق بقلوبنا ونياتها ورغباتها وخواطرها، ومن أحكام تتعلق بألسنتنا وأقوالنا، ومن أحكام تتعلق بجوارحنا وأعمالنا، ومن أحكام تتعلق بالعبادات فرضاً أو نفلاً، ومن أحكام تتعلق بالمعاملة مع الناس، مع الأفراد ومع المجتمع، على مستوى العلاقات الصغيرة في العائلة والجوار، وعلى مستوى العلاقات الكبيرة التي تحكم المجتمع المسلم، والتي تحكم التعامل مع غير المسلمين، ومن أحكام تحكم إقامة العمران والحضارة والتقدم، وغير ذلك.

ومن تعلم كل أحكام الله ظاهراً وباطناً، وعمل بها جميعاً؛ فقد صارت نفسه متصفة بكل صفات التزكية.

ولا شك أن في كل أمر ونهي مصالحَ ومنافعَ يدركها العقل، ولكن سواء أدركها أو لم يدركها، فما ذكرناه كاف لإقناع العقل بوجوب الطاعة لله عز وجل.

ـ **والإخلاص** لله قائم على الحقيقة الآتية: حينما تعلم أن الله هو وحده الذي يستحق أن يعبد، وهو وحده الذي يستطيع أن ينفعك أو يضرك، فكيف تعمل عملاً تتوجه به لغير الإله المعبود بحق، وكيف ترجو بشيء من عملك نفعاً ممن لا يملك النفع، فلا بد أن تتفانى في طاعة مولاك حتى لا يخطر في بالك رياء لغيره، لأن مصالحك كلها راجعة إلى الله.

ـ **وحب الله** قائم على الحقيقة الآتية: الله تعالى هو المتصف بصفات الكمال والجمال، وهو المحسن المتفضل على جميع خلقه بخلقهم وإمدادهم، لا نجد أحسن ولا أكمل منه، ولا نجد أكثر إحساناً إلينا منه، فيجب أن نحبه لأجل ذلك، ولا بد أن نبني على حبه كل حب وكل علاقاتنا، لأن مصالحنا ترجع إليه ومتوقفة على فضله، وعلاقتنا الأهم هي التي يجب أن تكون أساس العلاقات الأخرى مع الخلق جميعاً، وعلاقتنا الأهم هي علاقتنا مع الله، فيجب أن نحب

مَن أحبَّ اللهُ ونواليه ونصاحبه، ونبغض من أبغض اللهُ ونتبرأ منه ونفارقه، ولأجل ذلك نحب الأنبياء عليهم صلوات الله ونحب أولياء الله المؤمنين، لأنهم أحباب الله الذين أرضَوْه وعملوا بأحكامه، ونكره أعداء الله، لأنهم أغضبوا الله خالقهم، وخالفوا أحكامه.

ـ وفضل الله علينا وإحسانه لنا وحبه لنا، وهو أعظم موجود؛ يقتضي التعلق بالله وذكرَه والحضور معه والطاعة له وترك معصيته.

فإذا أدرك العبد هذه العقائد وعمل بمقتضاها فذلك الذي يعطي حقيقة التزكية ويوصل إلى أحسنها، إذ سيكون بذلك موحِّداً مخلصاً لله عالماً بأحكامه مستقيماً على أحكامه في كل حال.

وهذه العقائد كما تنشئ أساس التزكية، فإن حضورَها في الذهن وتَذَكُّرَها والعمل على مقتضاها دائماً يوصل إلى أعلى مقامات التزكية وثمراتها العظيمة.

وفي كل مرحلة من مراحل التزكية لا بد أن ترافقه هذه العقائد واستحضارها، وينضاف إليها غيرها في كل مرحلة بحسب ما يناسبها وما يناسب أعمالها وصفاتها وخصائصها، أي أحوالها ومقاماتها.

ـ وإذا علمنا أن الله هو الحاكم، فكيف جاءنا حكمه؟ ومَنْ بَلَّغَنا جميع أحكامه عن الله؟

لقد أرسل الله رسلاً لهذه المهمة، وختمهم بالنبي الرسول محمد بن عبد الله ﷺ، فما الدليل على أنه رسول الله؟ ولماذا نصدقه في ذلك؟ وما هو موقفنا منه؟ ولماذا نؤمن بأنه نبي؟ ولماذا نطيعه في كل أقواله؟ ولماذا نتبعه في كل أفعاله؟

المبحث الثاني

مكانة النبي محمد بن عبد الله ﷺ
ما هي أدلة صدقه؟ و لماذا نتبعه ونطيعه؟

مما يتساءل عنه الإنسان العاقل: ما دام الله تعالى هو صاحب الحق في أن يُعبد ويَحكم؛ فما هو المصدر الذي وصلتنا أحكام الله من خلاله، وما موقفنا تجاهه، وما واجبنا نحوه؟

لقد أرسل الله تعالى نبيه محمداً بأمور عظيمة، بها يُغيِّر حياة الناس، ويُلزِمُهم أن يكونوا على طريقة معينة ويقيدهم بأحكام كثيرة، ويخبرهم بأمور لا يمكن أن يعرفوها بالعقل أو بالتجربة؛ من إثبات صفات الله وأفعاله، وإثبات الآخرة ووصف الجنة والنار، وغير ذلك.

ولا يصح أن نصدق ونتبع من يدعي هذه الأمور ويدعي أنه على الحق وأنه مرسل من عند الله؛ حتى نعلم صدقه، ويزول كل شك فيه.

لذلك نبه الله تعالى العقول أن تنظر في شأن النبي ﷺ وتستبين صدقه وجمال ما يُحدِّث به، فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ: ٤٦].

وقد خاطب الله بهذا الخطاب أولئك الذين أصروا على تكذيب النبي وادَّعوا أنه شاعر وكاهن ومجنون وكذاب، وهم يعلمون أنه ليس كذلك، ويعلمون صدقه قبل بعثته وبعدها(١)، ويعلمون أن الكتاب الذي جاء به

(١) وكما لم يكن خافياً على قريش والعرب صدق رسول الله ﷺ، كذلك لم يكن يخفى رسولُ =

لا يستطيعه البشر، ومع ذلك أصروا على التكذيب، لذلك بين الله كذبهم وانحرافهم، فليس في النبي ﷺ ما يدل على شيء من هذه التهم، وإنما هي نعمة الله الذي اختاره لحمل رسالته ودينه، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وإذا ثبت صدق النبي ﷺ فذلك كافٍ لتصديقه في رسالته عن الله، ما لم يأت شيء يقتضي التكذيب، وعلى الرغم من ذلك فإن الله يعلم ما قد يثيره كثير من الناس من شكوك وجحود، فأعطى الأنبياء معجزات خارقة للعادة

= الله ﷺ على أهل الكتاب أيضاً، فأوصافه وأوصاف أصحابه في كتبهم، يعرفونها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، روى أهل السيرة في تفسير هذه الآية أن اليهود كانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عند قريش فإذا كان بينهم وبين قريش شر قالوا لهم: إنه سيأتي نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث النبي ﷺ أجاب من أجاب من قريش وآمنوا، وكفرت يهود، انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ج٢، ص ٣٧.

خارجة عن قدرة البشر تحداهم بها، ليقطع بهما حجج الخصوم والمنكرين، وليزيد المؤمنين إيماناً وتثبيتاً ويقيناً.

وقد أعطى الله نبيه محمداً ﷺ من دلائل النبوة شيئاً كثيراً، سواء في صفات شخصه أو في المعجزات التي أيده فيها أو في طبيعة الرسالة التي أرسلها إليه، أو غير ذلك[1].

(١) انظر في تفصيل ذلك كتاب «الرسول ﷺ» من تأليف والدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله.

من معجزات النبي محمد ﷺ

١. إنك لو نظرت إلى هذا الدين الذي جاء به النبيُّ محمدٌ ﷺ، من خلال نظرك إلى الكتاب والسنة ومعانيهما وجلالهما، ثم نظرت إلى طبيعة البيئة العربية مع ما كان فيها من جاهلية وظلم وفساد؛ لقلت إنه من المستحيل أن تفرز البيئة العربية هذا الدين ومعانيه، حتى غيرت أخلاق العرب وارتقت بهم، وهذه معجزة وحدها دالةٌ على أن هذا الدين ليس من عند بشر، وليس من اختراع النبي ﷺ، بل هو من عند الله.

٢. وإذا نظرت إلى هدي النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، تعلم أن هذا أمرٌ يَعْجَزُ عنه واحد من البشر لولا تأييدٌ ووحيٌ من الله وتوفيق، فإن كل التشريعات البشرية لم تستطع أن تفصِّل في قوانينها في كل صغيرة وكبيرة، وفي كل شأن من شؤون الحياة، فكيف يستطيع شخص وحده أن يشرع كل هذه التشريعات، لولا أن الذي يعلمه هو الله العليم بكل شيء والخبير بكل شأن.

٣. وإذا نظرت إلى معاني القرآن وتشريعاته، وجمالها وإحاطتها وشمولها وعدالتها، فذلك كاف لتصديق النبي ﷺ، وإثبات أن رسالته من عند الله لا من عند نفسه، ذلك أنه ما من تشريع سواه إلا وفيه من العيوب بحيث يحتاج المشرعون من البشر أن يغيروه وأن يعدلوه، وما من تشريع غير تشريع الله إلا وفيه نقص، ينتظرون حتى يحصل الأمر فيبحثون عن قانون له، وما من تشريع للبشر إلا وفيه أهواؤهم وميولهم وشهواتهم التي يحققها المشرع لنفسه أو لبعض الناس، فيظلم غيره، ولا يكون قانونه في مصلحة الآخرين، بينما شرع الله لا أهواء فيه ولا ميول، فالله عدل حقٌّ منزهٌ عن الحَيْف والظلم والإجحاف.

٤. وإذا نظرت إلى القرآن وما فيه من جمال في النظم والبيان، وقد تحدى الله تعالى البشرَ جميعاً أن يأتوا بمثله، فعجزوا، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]، والذين نزل عليهم القرآن كانوا أعرف الناس باللغة، سبقوا من قبلهم ومن بعدهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بسورة أو آية، فغيرهم أعجز فثبتت المعجزة للنبي ﷺ بذلك ووجب التصديق بما يقول من أنه مرسل من عند الله مؤيد منه.

٥. ولو نظرت إلى ما في القرآن من إعجاز علمي[١]، من خلال ذكر نظريات علمية بذل العقل البشري في هذا الزمان سنوات وجهوداً وأموالاً طائلة حتى وصل إلى نظرية فيها تحتمل الشك والخطأ، تجد القرآن يذكرها بكلمات معدودة مقرراً حقائقها[٢]، ومن يعلم ذلك إلا الله؟ ومن يعلم ما

---

(١) والإعجاز العلمي هو نوع من أنواع الإعجاز الغيبي، فهو إنباء عن أمور موجودة في الكون كانت غيباً عن الناس حتى اكتشفها أهل العلم في عصرنا الحديث، فالقرآن قد أخبر عن هذا الغيب قبل أن يصير معلوماً ومشهوداً للناس، ولم يكن العلم من التقدم بحيث يتمكن الإنسان في زمن نزول القرآن من معرفة هذه الأمور، فدل ذلك على أن الذي يخبر بهذه الأمور هو العالِم بالغيب والعالم بالكون الخالق له، فهي تدل على وجود الخالق العالِم بخلقه، كما تدل على أن الذي يوحي إلى النبي ﷺ هو خالق هذا الكون العالِمُ به.

(٢) من **الإعجاز العلمي في القرآن** آيات ورد فيها تنبيه أو إشارة إلى حقائق علمية لم يكتشفها البشر إلا في هذا العصر، ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١-٤]، يقول العلم الحديث: لكل إنسان بصمة خاصة ولا تتطابق البصمة حتى في التوائم.

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨]، يقول العلم: الشمس ليست ثابتة، بل هي تسبح في الفضاء، =

في ملكه إلا الله؟ كل ذلك يدل على أن مصدر هذا الشرع كلّه من عند الله

= والشمس مع المجموعة الشمسية التابعة لها تدور حول مركز مجرتنا درب التبانة بسرعة ٢١٧ كم في الثانية، أي ١٣٥ ميل في الثانية، يعني أنها تقطع في الساعة ٤٨٦ ألف ميل في الساعة، وتدور الشمس حول نفسها بسرعة ٢٢٠ كم في الثانية.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، يقول العلم: الأرض تدور حول نفسها بسرعة ٢٩ كم في الثانية تقريباً، مما يولد الليل والنهار، ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، يقول العلم: الأرض ليست مسطحة، وإنما هي كرة مدحُوَّة [مبسوطة] من وسطها، فلا هي كروية مئة بالمئة، ولا هي بيضوية كذلك.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، يقول العلم: الغلاف الجوي المحيط بالأرض يعمل على حفظها وحمايتها.

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١]، يقول العلم: ترجع السماء المطر إلى الأرض، وترجع الصوت، وتصد الغازات الكونية.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]، قال العلم: تدفع الرياح الغيوم وتراكمها فوق بعضها فتتكاثف وتبدأ بالهطول مشكِّلَة المطر، وهذا أمر معروف عند السابقين، لكن الإعجاز في الآية أنها تكلمت عن نوع معين من السحاب وهو السحاب الركامي، وقد وصفته الآية بوصف دقيق بأنه كالجبال، فالغيمة الواحدة منه يتراوح ارتفاعها بين ٥ و ١٠ كم، وخصصته الآية بالبرَد، والبرَد لا يتكون إلا في هذا النوع من السحاب، وكذلك ذكرت بشكل عام تكوّن البرق فيه، ونسبته إلى البرَد، وهو ما لم يكن معروفاً حتى القرن العشرين.

وقال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ =

= ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦]، قال العلم: ينمو الجنين في ظلمات ثلاث: جدار البطن والرحم وأغشية المشيمة.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال العلم: بالصعود لأعلى ينخفض الضغط الجوي وتختل نسب الغازات في الأعلى، وكذلك تختلف قيمها عما هي عليه في سطح الأرض، فيختل دخول الغازات وخروجها إلى الحويصلات الهوائية، ويحصل ضيق الصدر، ثم الحرج، وهو مرحلة الانغلاق التي لا يستطيع الإنسان التنفس بعدها.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] قال العلم: لأُذُنِ الإنسان مجال سمعي محدود، فما زاد عنه من ترددات صوتية أو ما انخفض عنه لا يسمعه الإنسان، وقد تسمعه كائنات أخرى، فغالبية الحيوانات مجالها السمعي أوسع من الإنسان.

وقال تعالى عن أهل الكهف وهم في نومتهم الطويلة: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف: ١٨]، قال العلم: إذا لم يتقلب المغمى عليه لفترة طويلة أو المريض العاجز عن الحركة؛ فإن ذلك يؤدي إلى تقرحات في الجسم، بسبب حصول خلل في تروية الدم للأعضاء عند عدم التقلب.

وقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[النور: ٤٠]، قال العلم: في البحار العميقة أمواج داخلية عظيمة كبيرة، وهذه الأمواج مع العمق تسبب ظلمة شديدة كما بينت الآية.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، قال العلم: حديد الأرض هو نتاج انفجار نجم كبير استقرت شظاياه في الأرض.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، قال العلم: في الفضاء ينعدم التشتت الضوئي، فنرى الظلام الأسود الحالك، ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧].

خالق الكون ومالكه(١).

ومعجزات النبي ﷺ عدا عن معجزة القرآن كثيرة جداً، وواحدة منها كافية لتصديق النبي، فكيف إذا اجتمعت العشرات والمئات من المعجزات(٢).

---

(١) والأمور التي تدل على أن القرآن حق من عند الله غيرُ ما ذُكر كثيرة، منها: أن القرآن يخبر عن أمور ستقع، فتقع كما أخبر، فقد أخبر الله عن نصر الروم، فقال: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢-٤]، وقد حصل، وأخبر الله عن أبي لهب ما يدل على أنه سيموت كافراً، فقال: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ * مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ [المسد: ١-٣]، وعاش بعدها سنوات ولم يؤمن، وأخبر الله أنه سيفتح على الناس في شأن العلم فيرون الآيات في الآفاق، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقد تبينت آيات كثيرة، ورأى الكافرون بأعينهم ذلك قبل غيرهم، وغير ذلك مما لا يعلم غيبه إلا الله، فلا يمكن أن يكون صاحب هذا القرآن المتكلم عن المستقبل الذي لا يخطئ إلا الله الخالق، فذلك ليس من قدرة المخلوقين.

(٢) انظر للتوسع في ذلك كتاب والدي رحمه الله: «الأساس في السنة وفقهها» قسم السيرة النبوية ج٣، ص١١٣٣ فما بعدها، وهذه بعض معجزات النبي ﷺ الثابتة:

أخرج البخاري أن النبي ﷺ حينما كان عروساً بزينب، أهدت إليه أم سُلَيم قليلاً من تمر وسمن وأَقِط، فأرسلتها مع ابنها أنس، فقال ﷺ ادع لي رجالاً سماهم وادع لي من لقيت، قال: فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، فوضع ﷺ يده في الحَيْسة وتكلم بما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة، حتى أكلوا جميعاً، وفي رواية مسلم: كانوا زهاء ثلاثمائة.

وأخرج مسلم أن أبا طلحة دعا النبي ﷺ إلى طعام يكفي نحو عشرة، فجاء النبي ﷺ ومعه رجال كثيرون ودعا بالبركة فأكلوا عشرة عشرة، وبقي الطعام كما هو، ثم أكل أهل البيت والنبي ﷺ وفضل عنهم وأعطوا جيرانهم. وفي رواية كانوا نحو خمسين.

وأخرج البخاري رقم ٣٨٧٥ ومسلم رقم ٢٠٣٩ ـ فيما معناه ـ أن جابر بن عبد الله رأى أن الجوع قد أصاب النبي ﷺ بعد حفر الخندق فذبح شاة صغيرة، وهيأ عجينة، ودعاه سراً وقال له: تعال أنت في نفر معك، فصاح النبي ﷺ: يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع لكم سُوراً [أي وليمة] فحيَّهلا بكم، وأمرهم أن لا يخرجوا الطعام من القدر ولا يدخلوا =

= العجينة في الفرن حتى يأتي، فجعل يطعمهم من القدر والفرن، وكانوا ألفاً، أقسم جابر بالله أنهم أكلوا جميعاً والبرمة [أي القدر] كما هي، والعجينة ما زالت تُخبز. وقد حصل مثل ذلك كثيراً في حياة النبي ﷺ.

وأخرج البخاري عن جابر أن والده عبدَ الله استشهد يوم أحد وكان عليه دين، فاشتد الغرماء في حقوقهم، فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فسألهم أن يقبلوا ثمرَ حائطي، ويحللوا أبي، فأبوا فلم يُعطهم ولم يكْسره لهم [أي لم يقسم الأرض لهم]، ولكن قال: «سأغدوا عليك إن شاء الله»، فغدا علينا حين أصبح فطاف في النخل، فدعا في ثمره بالبركة، فجددتُها [قطعتها]، فقضيتهم حقوقَهم، وبقي لنا من ثمرها بقية، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو جالس فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ لعمر وهو جالس: «اسمع يا عمر»، فقال عمر: ألا يكونُ قد علمنا أنك رسولُ الله، والله إنك لرسول الله.

وأخرج البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله في سفر، فَقَلَّ الماء، فقال: اطلبوا فضلةً من ماء، فجاؤوا بإناء فيه ماءٌ قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حيَّ على الطَّهور المبارك، والبركة من الله تعالى، فلقد رأيت الماء ينبُع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل.

وأخرج البخاري عن جابر أنهم في يوم الحديبية كان معهم ركوة ماء لم يكن معهم غيرها، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربوا وتوضأوا وكانوا خمسَ عشرةَ مائةً [أي ألفاً وخمسَمئة] قال: لو كنا مائة ألف لكفانا. وقد تكرر نبع الماء من أصابعه كثيراً.

وقد رُوي أكثرُ من حديث في مسحه ﷺ على الشاة ودعائه بالبركة فتحلب ما لا تحلب عادة، وأسلم من أسلم بسبب ذلك.

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله قال: كان جذع يقوم إليه رسول الله ﷺ فلما وُضِعَ له المِنبر سمعنا للجِذع مثل أصوات العِشار [العُشراء: الناقة التي بلغت شهرها العاشر شهر ولادتها]، حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه. وفي رواية: فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكت، حتى استقرت قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر.

وأخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله. =

= وأخرج الدارمي عن ابن عباس قال: أتى رجل من بني عامر رسولَ الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ألا أريك آية؟ قال: بلى، قال: فاذهب فادع تلك النخلة، فدعاها فجاءت تنقُزُ بين يديه، قال قل لها ترجع، قال لها رسول الله ﷺ ارجعي فرجعت حتى عادت إلى مكانها...

وأخرج ابن حبان رقم ٦٥٠٥ والبزار والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ دعا أعرابياً إلى أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، قال: مَن شاهدٌ على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة، فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخُدُّ الأرض خداً، حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مَنبَتها ورجع الأعرابي إلى قومه، فقال: إن يتبعوني أتيتك بهم، وإلا رجعت إليك فكنت معك.

وأخرج أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قال: ما رَمِدْتُ ولا صَدِعْتُ منذ مسح رسول الله ﷺ وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية.

أخرج الحاكم عن أنس قال: كان أُسيد بن حُضير وعَبّادُ بن بِشر عند النبي ﷺ في ليلة ظلماء حندس [شديدة الظلمة] فلما انصرفا أضاءت عصا أحدهما، فمشيا في ضوئها، فلما افترقا أضاءت عصا الآخر.

أخرج البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء.

وفي قصة بشراه يوم حفر الخندق إذ قال: «فإني حين ضَرَبْت الضربة الأولى: رُفعت لي مدائن كسرى وما حولها، ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني» فقالوا: ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارهم ويخرب بأيدينا بلادهم فدعا ﷺ بذلك «ثم ضَرَبْت الضربة الثانية فرُفعتْ لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني» ودعا لهم بمثل الأول، «ثم ضربْت الثالثة فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعيني» قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم».

وأخرج البخاري ومسلم بشرى النبي ﷺ بأن ناساً من هذه الأمة يركبون البحر غزاة في سبيل الله، وبشَّر أم حَرام بنتَ مِلْحان رضي الله عنها بأنها منهم، وقد كان، فركبت البحر مع زوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنه مجاهدة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

وبشر ﷺ بفتح مصر وبشر بفتح قسطنطينية وقد فتحتا.

كل هذه المعجزات وغيرها كثير؛ إنما جعلها الله تصديقاً للنبي محمدٍ ﷺ فيما يقوله من أنه مرسل من عند الله.

وإذا ثبت أنه صادق وأنه مرسل من عند الله وجب أن نطيعه في كل ما جاء به، لأنه إنما يأمرنا بأمر الله، اللهِ الذي له الحق في أن يَحْكُم في خلقه، ويَأْمُرَ فيُطاع.

ومن لم يعرف هذه الحقائق فكيف يحرص على طاعة النبي ﷺ، ومن عرفها واقتنع بها كيف لا يطيع النبي ويتابعه، لذلك لا يمكن أن يجتهد الإنسان في تزكية نفسه من خلال طاعة الأوامر التي جاء بها النبي ﷺ إلا أن تكون هذه الحقائق واضحة ثابتة في ذهنه.

وقد ثبت من خلال هذه الحقائق أن القرآن الكريم حق وصدق، من عند الله، وهذا الذي يدفع المؤمن إلى أن يقرأ القرآن ويعمل به، والقرآن هو أعظم ما يزكي النفس ويزيد الإيمان، ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢].

وإذا ثبت لنا أن الله هو خالقنا، وأنه المالك لنا، والحاكم علينا، وأن النبي ﷺ هو الذي أوصل إلينا أحكام الله علينا، فمن خلال ذلك ندرك من نحن، وما هي وظيفتنا وهدفنا في حياتنا، وهذا بيان ذلك:

المبحث الثالث

من أنا؟ و لماذا خلقت؟ وما هدفي؟

إن الإنسان إذا فكّر قليلاً في شأن نفسه، وشأن الحياة التي يعيشها، وشأن الكون الذي خُلِق فيه، وفكَّر لماذا هو موجود، وهل لوجوده مقصد وفائدة وهدف، إذا فكر بهذا ـ بعد أن عرف أن له رباً خالقاً معبوداً، وبعد أن عرف أن لله رسالة أرسلها إلى خلقه ـ فإنه يصل إلى حقائق:

أنه مخلوق مملوك لله الذي خلقه ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فعلى العبد أن لا يتعدى رتبته ولا يتجاوز قدره.

وأنه لا بد أن يرجع إلى الله ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فعلى العبد أن يستعد للقاء الله وللنجاة يوم الرجوع إليه.

وأنه لم يُوجَدْ عَبثاً قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وإنما أوجده الله بحق وحكمة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، فعلى العبد أن يعرف المقصد الذي لأجله خلق، فيجعله الهدف الذي يعيش له.

وأنه ليس للإنسان أن يعيش كما يريد فيعبد نفسه وشهواته وهواه، ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، بل لا بد أن يخضع لمالكه وخالقه، فيكونَ عبداً له ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وحياة الإنسان كلُّها ينبغي أن تكون مبنية على هذه الحقائق، فمن خلالها يحدد وظيفته في الحياة وأهدافه وأعماله.

والتزكية إنما تكون تزكية إذا كانت ملتفتة إلى هذه الحقائق، فبقدر ما يحقق الإنسان المقصد الذي خلق له؛ يكون نصيبه من التزكية أوفر، وبقدر ما يخضع لمالكه يكون زاكِياً، وبقدر ما يتصف بصفته الحقيقية، صفة العبودية؛ بقدر ما يكون زَكِيّاً، وبقدر ما يُقَدِّرُ الله قَدْرَه فيعرفَ له صفاته ـ صفة الألوهية والربوبية وغيرها ـ بقدر ما يكون زَكِيّاً.

إن فهم هذه الحقائق والانتباه إليها يجعل للإنسان هدفاً في هذه الحياة يبحث عنه، يسعى إليه، يريد أن يحققه، هذا الهدف هو نفسه المقصدُ الذي خَلَقَه الله لأجله.

إن الذي يعيش في الحياة الدنيا ولم يعرف ما الهدف الذي يسعى إليه لا شك أنه تائه ضائع، بل قد يكون مفسِداً في حق نفسه وغيره، لأنه لا يسير في الاتجاه الصحيح لجهله بهدفه أو غفلته عنه.

اعرِف ما الذي يريده الله منك، واجعله هدفك في حياتك

ـ إذا عرفت أيها الإنسان أنك عبد لله، وأنه قد خلقك لتحقيق العبودية، فالمقصد الذي خلقك الله له هو الذي يجب أن تجعله هدفك الذي تسعى إليه، وتحقيقك لذلك هو تزكية نفسك وصلاحها، وتضييع ذلك هو فسادها وتدسيتها.

أهم مطلب للإنسان وأهم مقصد هو ما خلق لأجله وهو **العبودية**: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومن جعل العبودية بإخلاصها وأعمالها وأخلاقها مقصودَه ثبت على الطاعة والعبودية حتى يتوفاه الله، لكن الذي يجعل لنفسه هدفاً مقاماً معيناً، أو جعل هدفه أن يذوق حلاوة الطاعة؛ فربما وقف بعض عمله وقصَّر في اجتهاده إذا ظن أنه بلغ المقام الذي يريده، أو يتوقف عن اجتهاده إذا يئس عن بلوغ المقام الذي جعله لنفسه هدفاً، لكن العبودية وأعمالها لا انتهاء لها إلا بالموت، فمن جعلها مقصوده استقرَّ في نفسه أنه لن يتركها إلا بمغادرة الحياة: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] ويعني باليقين الموت، لأن كل بشر متيقن بأنه سيأتيه(١)، فالمقصد الذي خُلقنا له لا ينتهي العمل لأجله إلا بانتهاء الحياة عند الموت.

والعبودية تشمل مقامات لا يحصرها الخلق، فبقدر ما تطلب منها مقاماً أعلى وبقدر ما يكون هدفك الذي رسمته لنفسك سامياً وعالياً؛ يكون السعي إليه والعمل لأجله أقوى وأعظم، وتدوم الهِمَّة والعزيمة معه أكثر، فمن جعل هدفه أن يزحزح عن النار؛ ليس كمن جعل هدفه أن يكون من الصِّدِّيقين.

والعبودية منها ما هو واجب ومنها ما هو مندوب، فأقل ما يجب على الإنسان أن يجعله هدفاً له: أن يحقق تلك الواجبات، ومن الواجبات ترك المحرمات، وأهم الواجبات الإيمان، ولكن العاقل لا يكتفي بالحد الأدنى من العبودية، وإنما يحاول أن يتحقق بصفته اللازمة له ـ صفة العبودية ـ في كل وقت، فيجتهد ليتحقق بالعبودية على أكمل وجه.

---

(١) سمى الله تعالى الموت يقيناً لأنه مُستيقَن مجيؤه عند الخلق جميعاً، قال البيضاوي في تفسيره ص٣٨٣: «﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] أي الموت، فإنه متيقن لحاقه كل حي مخلوق، والمعنى فاعبده ما دُمْت حياً».

ومهما بلغ الإنسان في الدنيا فلا يزال أمامه مقامات من مقامات العبودية يترقى فيها ويزكي نفسه بها، ألا ترى إلى رسول الله ﷺ وهو أكمل الخلق يطلب المزيد ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤]، ومهما بلغنا فلن نبلغ قريباً من رسول الله ﷺ، أفلا نطلب المزيد؟

فجدد طلب الهدف الأسمى آناً بعد آن، ليكون دافعاً وباعثاً لك إلى العمل، وليكون مذكِّراً لك بقيمة مقصدك وعلوِّه، فلا تلتفت إلى السفاسف والمحقَّرات والدنايا، ولا تقف عندها.

ـ هذا الهدف الذي لا ينبغي أن يكون للإنسان هدف سواه، هو الهدف الأعلى الذي ينبغي أن تندرج تحته كل الأهداف الصغيرة في الحياة، وهو الذي ينبغي أن نرسم حياتنا ونخطط لها وننظمها على ضَوئه، نترك أي شيء يتعارض مع هذا الهدف أو يؤخر وصولنا إليه.

لو أن الطالب الذي يدرس الطب أحبه بعض زملائه وصاروا يزورونه كثيراً بحيث بدأ ذلك يؤثر على دراسته، ماذا يصنع؟ هل يرضى بذلك حتى لو كان سبباً في رسوبه أو نقص علاماته أو قلة معلوماته، ولو رضي بذلك ونجح بعلامات متدنية ومعلومات قليلة؛ كم سيكون أثر ذلك سيئاً في عمله الطبي، كم سيأتيه من مريض فلا يحسن أن يعالجه لقلة معلوماته وعدم فهمه وحفظه لما تحتاجه مهنته.

ولو أن المزارع شغله بعض الناس بزيارات ولهو، كم سيُنتج؟ وكم سيندم على قلة محصوله الذي ينتجه في الموسم؟ أم يكون عاقلاً فيزرع ويعمل بقدر حاجته التي هي هدفه من الزراعة، ثم يجعل ما زاد من وقته للزيارات وغيرها.

ومن يطلب رضوان الله كيف يرضى أن ينشغل بشيء يضيع معه هدفه وتنزل به رتبته عند الرحمن في الجِنان؟

ـ ومن الواجب أن تكون جميع أعمالك وعلاقاتك متوافقةً مع الهدف الأسمى لك، ومحقِّقَةً له في كل تصرف، وفي كل وقت.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فمن اهتم بهدف ومقصد فعليه أن يبحث عن وسائله ويمشي بها، ويترك الوسائل التي تضادّ الهدف وتخالفه وتنحرف عنه.

ـ ولقد نبهنا النبي ﷺ إلى أنه لا بد أن يكون للإنسان هدف يسعى إليه ويسدد نحوه:

قال ﷺ: «سددوا وقاربوا» (١)، والتسديد إنما يكون نحو هدف، والسداد هو الاستقامة، والاستقامة إنما تكون إلى جهة محددة وهدف معروف، كالخط المستقيم يتجه إلى جهة معروفة.

فبعد أن تحدد هدفك تسدد نحوه وتسعى نحوه وتقصد إليه باستقامة

(١) قال ﷺ: «لن يُنجي أحداً منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، **سددوا وقاربوا**، واغدوا وروحوا، وشيء من الدُّلجة، **والقصد القصد تبلغوا**»، أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦٠٩٨ عن أبي هريرة ﷺ، وأخرج مسلم نحوه في صحيحه رقم ٢٨١٦، وأخرج البخاري أيضاً عن أَبِي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولنْ يشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلاَّ غَلَبه فسدِّدُوا وقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، واسْتعِينُوا بِالْغدْوةِ والرَّوْحةِ وشَيْءٍ مِن الدُّلْجةِ»، وقوله ﷺ: «إِلاَّ غَلَبَهُ»: أَيْ غَلَبَه الدِّينُ وَعَجزَ ذلكَ الْمُشَادُّ عنْ مُقَاومَةِ الدِّينِ لِكَثْرةِ طُرقِهِ، «والْغَدْوةُ»: سيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ، «وَالرَّوْحةُ»: آخِرُ النَّهارِ، «والدُّلْجَةُ»: آخِرُ اللَّيْلِ، وَمعْناهُ: اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعةِ الله عز وجلَّ بالأَعْمالِ فِي وقْتِ نشاطِكُمْ، وفَراغِ قُلُوبِكُمْ، بحيثُ تَسْتلذُّونَ الْعِبادَةَ ولا تسأَمُونَ مقْصُودكُمْ، كَما أَنَّ الْمُسافِرَ الْحاذِقَ يَسيرُ في هَذهِ الأَوْقَاتِ وَيستَرِيحُ هُو ودابَّتُهُ فِي غَيْرِهَا، فيصِلُ الْمَقْصُود بِغَيْرِ تعبٍ، والله أَعلم.

لتصيب الهدف المطلوب، فإذا ضعفت عن إصابة الهدف تماماً فقارِبْ منه ولا تُبعِدْ عنه: «وقاربوا».

والهدف هو تلك الغاية التي يريد الوصول إليها، والغاية هي التي تمثل نهاية الطريق الذي يسير فيه.

ـ وكما يجب أن يكون الهدف صحيحاً ومعلوماً وواضحاً؛ ينبغي أن **يبقى أمام أعيننا**، نتذكره ولا ننساه، نجعله محور تفكيرنا، فإن بقاء الهدف في ذهن الإنسان وفكره واهتمامه يدفعه إلى العمل والسعي الذي يحقق ذلك الهدف، قال ﷺ: «والقصد القصد تبلغوا»(١)، فبقدر ما يجعل الإنسانُ قصدَه وهدفَه همّاً له، وبقدر ما يسعى نحوه؛ بقدر ما يبلغ المقصود والهدف المنشود.

ومن معاني «القصد»: الاعتدال، ولا يكون الإنسان معتدلاً إلا إذا كان سائراً على الخط الذي يوصل إلى الهدف تماماً، وإلا كان منحرفاً مائلاً إلى أحد طرفي القصد، إما إلى التفريط أو إلى الإفراط.

ـ وإذا جهل الإنسان هدفه أو غفل عنه أو نسيه؛ ينشغل بما لا ينفع أو يتخبط وينحرف، كما وصف الله من انحرف عن الحق بقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [إبراهيم: ٣].

والإنسان الذي عرف أين هو الخير والحق اللذان يحققان السعادة له، وعرف أن طهارة نفسه وتزكيتَها هي التي تعطيه تلك السعادة في الدنيا والآخرة، فلا بد أن يرغب في تزكية نفسه وإرضاء ربه، ويجتهد في طاعة ربه ويجاهد، ويترك اللهو والعصيان والشواغل عن مقصده وهدفه العظيم.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وهو جزء من الحديث الذي ذكرنا بعضه قبل قليل: «سددوا وقاربوا».

ومن عرف أهدافه العالية وكانت واضحة عنده وعرف أن تزكية النفس تحققها له؛ فإنه يبقى متذكراً لها محباً لها منجذباً نحوها، وما لم يعرف الإنسان قيمة التزكية وأهدافها العالية؛ فإن حرصه عليها وسيره إليها سيكون ضعيفاً، أو لا يلبث أن ينقطع، فإن وضوح الهدف والمقصد وجمالَه في عقل الإنسان وقلبه؛ هو الذي يعطيه الثبات والرغبة في متابعة الطريق إلى نهايته، التي تكون بموت الإنسان.

فالهدف الذي ترسمه لنفسك هو الذي يُوجِد الهمة والعمل والاجتهاد، كالطالب الذي جعل همَّه أن ينجح ويتفوق؛ يدفعه ذلك إلى الجد والاجتهاد وتحمُّل السهر والدراسة ويصرفه ذلك عن شهواته وكثيرٍ من حظوظ نفسه، والطالب الذي لا يَهُمُّه نجاحُه أو رسوبه؛ لا يبالي إن دَرَسَ أم لم يَدْرُس، ينشغل بشهواته ويلهو ويضيِّع وقته.

ـ وكما نبهنا النبي ﷺ على أن يكون كل عمل من أعمالنا لله تعالى، كذلك نبهنا أن نجعل حياتنا كلها لله، فقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

فالحديث ينبهنا إلى أهمية النية الكبرى في حياة الإنسان، تلك النية التي تشمل حياة الإنسان كلَّها، فلا يتحرك إلى شيء إلا إذا كان ضمن إطار هذه النية الكبرى، وهي التي تسمى مقصد الحياة وهدفها، وهي التي سماها بالهجرة إلى الله ورسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١ ومسلم رقم ١٩٠٧ بلفظ «النية» و«يتزوجها» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فالذي نسير إليه ونهاجر إليه هو الله عز وجل ورسوله ﷺ، فنبهنا بهذا إلى الهدف الذي نقصده في حياتنا، والذي ينفعنا.

والذي يهاجر إلى بلد أو مكان فإنه إما أن يكون راغباً في البلد نفسه أو ببعض ما يجد فيه، ويكون هذا الذي يرغب به محبوباً عنده، وكذلك الهجرة إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ لا تتحقق ولا يرغب بها الإنسان ما لم يكن محباً لله ولرسوله ولما عندهما.

وهجرة العبد إلى ربه سبحانه ليست هجرة مكان أو مسافة، وإنما هي هجرة إقبال وحب وطاعة وطلب وعبودية وذلة، وكذلك كان حال أنبياء الله في إقبالهم على الله كأنهم مهاجرون إليه، فبهذا وصف الله تعالى نبيه الكريم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

والهجرة إلى النبي ﷺ ـ التي ذكرها الحديث ـ هي هجرة محبة وطاعة واتباع.

والله تعالى يأمرنا جميعاً بأن نكون مهاجرين إليه، بل يأمرنا أن تكون هجرتنا سريعة وكأننا نفر من عدوٍّ، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

والله تعالى ندبنا إلى الأحسن والأسرع: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، وندبنا سبحانه إلى طلب المسارعة في التوبة إليه والإقبال عليه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

وإذا كان هدفك الذي تحققه في الدنيا هو **العبودية** بما فيها من طاعة وترك معصية ومسارعة إلى الخيرات؛ فإن الهدف والنتيجة والمقصد الذي يتحصل من هذه العبودية هو هدفك الأخروي وهو **الجنة ورضوان الله عنك**.

فكل ما يفعله المسلم ينبغي أن يكون مريداً به وجه الله ورضوانه، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى يصف حال المؤمن الذي جعل هدفه رضوان الله فهو يبحث عما يرضي الله ويتبع طريق ذلك: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، واتباع رضوان الله هو سبب في هداية الله للعبد: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

ـ **والجنة هدف لمن يزكي نفسه**، فهي جزاؤه على تزكيته لنفسه، كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦].

والجنة فيها جنان متعددة وفيها درجات، فيها من يزحزح عن النار، وفيها من يكون في الفردوس الأعلى، وفيها من يكون في الغرفات آمناً، وفيها من يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وفيها من يكون في جنات عدن، وفيها من يكون له جنتان، ومن دونهما لغيرهم جنتان، فانظر أي الجنان تطلب، وكن حريصاً على الأعلى والأكثر نعيماً وقرباً من الله، من خلال التزامك بأمر

الله ما استطعت، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وانظر إلى أبي بكر ﷺ كيف كان يطمع في أعلى النعيم في الجنة، وكان يسعى إليه ويعمل لأجله، فنال ذلك، قال رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ الله نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ الله هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، **فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا**؟ قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»(١).

ـ وإذا كانت الجنة هدفاً للمسلم، وهي نِعْمَ الهدف والمقصد، **فرضوان الله أيضاً هدف**، وهو أعظم وأكبر من الجنة، كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ** ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فاطلب الرضوان لتناله في الدنيا قبل الآخرة لتكون كمن قال الله فيهم: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، ومن قصَّر في طلب الرضوان قد يدخل الجنة ولم يستحق بعدُ رضوان الله، لكن الله يدخله الجنة برحمته ويُحِل عليه الرضوان في الجنة.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل

(١) أخرجه البخاري رقم ١٧٩٨ ومسلم رقم ١٠٢٧ عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وقد جاءت بعض الروايات بصيغة الجزم: «وأنت منهم».

رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: **أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً**»[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨][2].

ـ ولما كانت الدنيا وشهواتها هي أعظم الأسباب التي تجعل الإنسان يغفل أو يحيد أو ينحرف عن مقصده وهدفه الذي خلقه الله له؛ فلا بد من بيان حقيقة الدنيا والتنبيه على عدم الغفلة بها عن الله وأمره وآخرته، وهذا ما نبينه في الموضوع الآتي:

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٥٤٩ ورقم ٧٥١٨ ومسلم رقم ٢٨٢٩.

(٢) من المفسرين من قال: إن الرضا صفة للنفس تنالها في الدنيا فترجع بهذه الصفة إلى الله ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّة ﴾[الفجر:٢٨] وتكون عندئذ من عباد الله حقاً ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:٢٩]، ثم يكون مآل النفس في الآخرة إلى الجنة: ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٣٠]، وقال أكثر المفسرين: إن الملائكة تخاطب النفسَ المطمئنة بهذه الآية يوم القيامة، واصفة النفس بأنها ترضى لِما وجدت من نعيم، وتكون مرضية من ربها لما بذلت من اجتهاد حتى اطمأنت، انظر: تفسير الطبري: ج ٣٠، ص١٨٩-١٩٢.

المبحث الرابع

ما هذه الحياة التي نعيشها؟
وهل تصلح هدفا؟ وكيف نستعملها؟

من أهم الحقائق التي عرفنا الله بها والتي يجب أن يُدرِكها الإنسان عن الحياة الدنيا:

١. قيمةُ الدنيا وهوانُها، قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]. ومن علم هوان الدنيا وحقارتها فإنها لا يستعظمها ولا ما فيها من شهوات ولا يتعلق بها، بل يزهد بما زاد عن حاجته.

والدنيا هينة بذاتها، فكيف إذا قارنتها بنعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

٢. وأنها وسيلة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[٢]، والغريب المسافر لا يحمل أكثر من حاجته، والدنيا لتأخذ منها لما بعد موتك، فإذا فهمت أن الدنيا وسيلة، فاتخذها مطية لغايتها، وغاية الدنيا الآخرة، فتأخذ من الدنيا حاجتك، وتجعل ما يزيد

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢٠ عن سهل بن سعد ﷺ، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٠٥٣.

عن حاجتك نافعاً لك في آخرتك، ولا تجعلُ من الدنيا شاغلاً عما أوجب الله وفرض عليك مما ينفعك في غايتِك ومآلِك ومرجِعِك، ولا تأخذ من شهوات الدنيا التي حرمها الله عليك، فتكون الدنيا سبباً في طغيانك وعذابك.

٣. وأنها محل اختبار وابتلاء، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فالله جعل في الدنيا زينة وجمالاً وخيراً وشراً ليمتحن بها خلقه، فلا تَنْخَدِعْ بما تراه من شهوات وزينة، وإنما تنتبه إلى أنها موضوعة أمامك لتُخْتَبَر؛ هل تميل إليه وتتزيد منها، أو تأخذ قدر حاجتك ويكون ميلك ورغبتك إلى ما يستأهل أن ترغب به؛ الآخرةُ ورضوانُ الله.

٤. وأنها إلى فناء وانتهاء وانتقال عنها، ففي أي لحظة يمكن أن ترحل عنها، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]، وقال ﷺ: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]، فإذا كانت الدنيا وزينتها وشهواتها إلى انتهاء؛ فكيف تبالغ في الاستزادة منها، وكيف لا تستعد للدار التي أنت راحل إليها، وكيف لا تتخذ من الدنيا محلاً للعمل لما ينفعك في آخرتك التي ستنتقل إليها؟

(١) حديث صحيح، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٧٠٩ والترمذي رقم ٢٣٧٧ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في سننه ٤١٠٩، وابن حبان بنحوه في صحيحه ٦٣٥٢، وغيرهم..

إن إدراك هذه الحقائق عن الدنيا هو الذي يحمي الإنسان من أن يتخذها هدفاً ومقصداً، فتشغله عن مقصده الحق الذي خُلِق له.

إنَّ أكثرَ ما يحرف الناس عن هدفهم الصحيح: الدنيا، بما فيها من زينة وشهوات، إذ يجعلونها الشغل الشاغل والمقصد الأول، فكيف يجب أن ننظر إلى الدنيا؟ وكيف يجب أن نتعامل معها؟

ـ حينما نتكلم عن الدنيا فإنما نقصد تلك المشتهيات والملذات التي توجد في الدنيا، فإننا نجد أن الله تعالى سماها شهوات وسماها دنيا حيث قال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، فقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلۡحَرۡثِ﴾؛ بيان لأنواع الشهوات، ثم قال عنها ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

ـ هذه الشهوات وهذه الدنيا زيَّنها الله تعالى ابتلاءً واختباراً، لينظر من يميل إلى هذه الأمور ويجعلها مقصده في الحياة، ومن يترفع عنها ويجعل الحلال منها وسيلة للمقصد الذي خلق من أجله، وما زين من هذه الشهوات ليس كلُّه زينةً، إنما هو ـ في الحقيقة ـ متاع الغرور ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والشيطان يبذل جهده في خداع الناس بها وتزيينها لهم، قال تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [النحل: ٦٣].

وليس شيء من هذه الأمور زينةً، إلا القدر الذي شرع الله للإنسان أن يأخذه منها، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وحتى هذه الزينة مقصودها الأول الابتلاء بها، كما

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

ـ إن ميل الإنسان ورغبته في شهوة هو الذي يشكل الدافع له إلى ارتكابها، وإن زينة المال والعمارات هي التي تشكل الدافع له والباعث إلى اقتنائها والتعب في تحصيلها والانشغال بها.

والدنيا بكل ما فيها إنما هي مطيّة ووسيلة إلى الآخرة، لا تكون هدفاً ولا مقصداً بذاتها، لأنها غرور، مآلها إلى الفناء والانتقال عنها، فلا تصلح إلا وسيلة، والوسيلة لا يؤخذ منها إلا بقدر الحاجة إلى الهدف.

ومن جعل الدنيا وشهواتها مقصداً فمصيره النار والخسران، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وقال سبحانه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨].

ـ ومَثَلُ من وقف مع زينة الدنيا وجعلها مقصداً وهدفاً، ونسي ربه الذي خلقه، ونسي عبوديته التي خلق لها ووُظِّف فيها، ونسي آخرته التي سيصير إليها ثم يبقى فيها، مَثَلُه: كمثل رجل أراد أن يصل موضعاً أو مكاناً فكان هذا المكانُ مقصدَه، فاحتاج إلى رَكُوبَةٍ ليركب عليها ويسير بها، فاشترى حماراً أو سيارة أو طائرة، لتكون وسيلته، فأُعْجِب برَكوبَتِه التي اشتراها وجعل يزينها ويعيش معها ولَها، ونسي مقصده الذي لأجله اشتراها، فهل هذا عاقل؟

كذلك ضرب الله مَثلاً لمن أُعجِب بالدنيا، ونسي اتخاذها وسيلة لعِمارة آخرته؛ ضرب له مثلاً بالنَّبات، يُعجَب المرءُ بخُضْرته وثمراته، فلا يلبث أن يصفرَّ ويزولَ، وكذلك زخرف الدنيا وزينتها مآلها الفناء، ولا يكون الإعداد

والتعمير للفاني، وإنما الإعداد والبناء لمحل البقاء، قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه الدنيا لما تزينت في نظر محبيها والعاملين لها طلبوها وعاشوا لها وجعلوها مقصدهم، وأنت أيها العاقل، الباحثُ عن خيرِ نفسك، الراغبُ في تزكية نفسك، عليك أن تنظر بفكر متجرد أين الزينة الحقيقية؟ وأين الخير والحق الذي ينبغي أن تجعله هدفك ومحبوبك ومقصدك في حياتك؟ فلا يكون عندك زَيْنٌ إلا ما هو زين حقيقةً.

أليست الزينة الحقيقة هي الإيمان وما يتفرع عنه، مما خلقنا الله له من عبادة وتزكية، فهذه هي التي تعطي السعادة الحقيقية في الحياة الدنيا ثم في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

ـ إن المباح من الزينة الدنيوية قد يصير في حالات محرماً، فلا يعود زينة في ميزان الله، إذ إن المباح من الدنيا لا يجوز أن يكون على حساب الفرائض والواجبات، فإذا شغلته الدنيا المباحة عن الواجبات فقد أثم، وإذا أنفق المال الذي يجب بذله في الواجبات؛ أنفقه في المباحات كان ذلك حراماً واعتداءاً، وليس من المال الحلال المباح ولا من الزينة المشروعة، أما إذا ندب إلى إنفاق فاستعمل المال في المباح فإنه لا يأثم، لكنه يكون قد فوت على نفسه خيراً وأجراً، وإذا انشغل بأعمال مباحة دنيوية ليست من حاجاته الضرورية ويمكنه أن يستغني عنها؛ انشغل بها عن عبادات من النوافل والمندوبات؛ كذلك لا يكون مسيئاً ولا آثماً، ولكنه يكون قد فوت على نفسه خيراً، خسره وانشغل عنه بما لا

ينفعه في الآخرة، ونفعه في الدنيا قليل ووهم بالنسبة لما فَوَّته على نفسه بتركه للنوافل من نفع الآخرة وأجرها ولَذّاتها ونعيمها.

ـ ومن علم هوان الدنيا عند الله خالقِها، وأنها **لا تزن جناح بعوضة**، وأنها **أهون من سخلة**(١) **ميتة لا يُنتفع بها**؛ فكيف لا يزهد في هذه الدنيا، وكيف يتعلق بها ويضيِّع بسببها الحياة الحقيقة ذات القيمة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فالله تعالى وصف الآخرة بأنها هي الحيوان أي الحياة الحقيقية، فالدنيا كأنها لحظة في جنب الآخرة، فهي ليست بحياة حقيقية، يعتني بها الإنسان ويتركها ولا يعتني بالحياة الآخرة التي يدوم فيها النعيم أو العذاب، ولأجل ذلك قال النبي ﷺ عن الدنيا: «ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح و تركها»(٢)، فالذي حصل من الدنيا مالًا كثيراً وقوة ثم صرفها في الدنيا ولم يستعملها فيما ينفعه في الآخرة، فمثله كمثل من سافر وعمل وحصل مالاً كثيراً في جاء تحت شجرة فأنفق المال تحتها وصرَفه ولم يترك منه شيئاً، ثم رجع إلى أهله، وليس معه شيء، هذا مثال من يأتي الآخرة وليس معه من الأعمال الصالحة ما يؤهله لدخول الجنة.

والله تعالى إنما خلق الدنيا بما فيها من زينة وحياة وموت للابتلاء، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ومن علم أن الدنيا محلٌّ للاختبار والابتلاء، وليست محلاً للجزاء؛ كيف يتعلق بها؟ وكيف لا يستعملها للنجاح في الاختبار؟ وكيف لا يتخذها وسيلة يُحسن فيها العمل للغاية الأخروية؟ وكيف لا يقتصر منها على قدر الحاجة؟

---

(١) هي الغنمة الصغيرة حديثة الولادة.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٧٠٩، والترمذي رقم ٢٣٧٧ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في سننه ٤١٠٩، وابن حبان بنحوه في صحيحه ٦٣٥٢، وغيرهم.

ـ كم فينا من يعيش في الدنيا وكأنها هي الهدف، فإن زاد من وقته جعله لربه وآخرته ودعوته، والأصل العكس، وهو أن يجعل رضوان ربه وآخرته ودعوته هي الأهداف التي يعيش لها، ويأخذ من الدنيا بقدر ما يحقق هذه الأهداف، وبما لا يناقضها.

فإن كنت صادقاً مع نفسك؛ فاجعل تحقيق هدفك الصحيح هو الموجه لك في حياتك وأوقاتك وأعمالك، وفي اختيار عِلْمِك ووظيفتك وبلدك وسكنك وزوجتك وأصحابك، ولا تجعل عملك والواقع يفرض عليك خلاف هدفك، واغتنم الواقع لتحقيق هدفك ما استطعت، فهذا دليل الصدق في قناعتك بقيمة هدفك ومقصدك، وهذا دليل معرفتك بحقيقة الدنيا، وهذا **سبيل نجاحك** في حياتك.

ـ ومن فكَّر فيما ذكرنا عن الحياة الدنيا، وأدرك هذه الحقائق؛ فقد خرج من أهم أسباب الغفلة، فلا شك أن من وعى ذلك وتذكره مرة بعد مرة؛ لا شك أنه يقطع حرصه على الدنيا، ليتوجه إلى الآخرة، فيستيقظ ضميره ويستعمل فكره، ويوجه دنياه إلى نفعه الحقيقي في الآخرة عند الله، فيتجنب بعد ذلك أن يضيع أوقاته فيما لا ينفعه في الآخرة، وينتبه إلى نفسه وأعماله وأمواله وما أعطاه الله؛ فيوجهها إلى الآخرة التي سيرحل إليها، ليجد جزاء أعماله فيها.

ولما كانت الدنيا طريقاً إلى الآخرة، ووسيلةً إلى إعمارها، فلا بد أن نتعرف على الآخرة التي سنصير إليها، ولا بد أن نعرف ما الذي ينفعنا فيها، لنتعامل مع الدنيا على ضوء ذلك، بيان ذلك في الموضوع الآتي:

المبحث الخامس

ماذا بعد هذه الدنيا؟ إلى أين المآل والمرجع؟
ما هو اليوم الآخر بعد يوم الدنيا؟

من أهم الحقائق التي يجب أن يعرفها الإنسان ويؤمن بها؛ حقيقة ثبوت اليوم الآخر، وما فيه من أحداث وحساب، ونعيم وعذاب، والإيمان بهذه الحقائق لها عظيم الأثر في تزكية النفوس.

فمن اعتقد بأن الجنة حق وعرف أوصافها؛ حصلت في نفسه الرغبة في العمل لتحصيلها، ومن اعتقد بأن النار حق وعرف أوصافها؛ حصلت في نفسه الخشية والرهبة منها والحذر من المعاصي التي توصل إليها، وما لم توجد رغبة في الجنة وخشية من النار فلا ينتفع الإنسان من التذكير والإنذار، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۞ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥-٤٦].

كل الناس يرون أن لحياتهم ودنياهم نهاية ينتهون إليها، وموتاً يفاجئهم: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[النساء: ٧٨]، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

ومع علم الناس بذلك فأكثرهم غافلون، فأحدنا لا يفكر في مآله ومرجعه ونهايته وموته وما بعد موته: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

والإنسان العاقل يتساءل: هل هذا الموت هو نهاية كل شيء؟ هل يمكن أن تكون هذه الدنيا هي كل شيء؟ يفعل فيها الإنسان ما يشاء، ويظلم الخلقُ

بعضهم بعضاً، ثم ينتهي الأمر؛ ولا يُسأل أحد عن فعله، ولا يعاقب المفسد على ظلمه وجرائمه، ولا يجازى المحسن على إحسانه؟

إن حاكماً من حكام الدنيا لو ترك الناس يتظالمون ولم يعدل بينهم ـ وهو يقدر على أن يعدل بينهم ـ لكان محل ذمٍّ واتهام، فكيف بالخالق المالك العَدْل الحكيم سبحانه، أيترك حياة الخلائق عبثاً ولهواً؟ ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أليس من الطبيعي أن يعدل بين الخلائق ويحكم بينهم؟ ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الحج: ٦٩].

وقد شاء الله سبحانه أن يجعل الدنيا محلَّ العمل والاختبار والابتلاء، وأن يجعل الآخرة محلَّ الجزاء، وقد أخبرنا الله بأنه جعل آخرة يحاسب فيها خلقه ويجازيهم فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣١]، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ٩٣]، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة: ٢٥]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ابراهيم: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤].

أَمِنَ العدل أن يسوّى بين المحسن والظالم والمصلح والمفسد؟ ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨]، ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]، ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

إن الله تعالى وحده هو القادر على معرفة أعمال الخلق جميعاً وخفايا قلوبهم وصدورهم ونياتهم:

قال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٠].

وهو وحده القادر على إقامة العدل الكامل بين الخلق، لأنه القادر على تمييز الأعمال ووزنها وزناً صحيحاً عادلاً دقيقاً:

قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ولا يستطيع غير الله سبحانه وزن أعمالهم حقيقة.

والله عز وجل وحده هو القادر على خلق محل الثواب ومحل العقاب، إذ لا خالق سواه.

وهو القادر على إيقاف الخلق جميعاً وحسابِهم وإنزالِ الثواب أو العقاب الذي يستحقونه، ولا يقدر غيره على إمساك الخلق، كما لا يستطيع غيره أن يتحكم بهم جميعاً ويسوقهم، لينزل العقاب بأهله، وليقدم الثواب لأهله، فلا مفرَّ لأحد منه.

قال تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا * يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا * وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ [طه: ١٠٨-١١١].

أيحسب المفسدون أنهم يفرون من الله، أيحسبون أنه لا يقدر عليهم؟ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤].

كلا، فإن طريق الجميع إلى الموت وما بعده:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

ولما كانت الدنيا هي الطريق إلى الآخرة، فما هي الآخرة وما هي الجنة التي نسعى إليها وما هي النار التي نحذرها، وكيف ننتقل إلى الآخرة؟

ـ ما الذي يكون بعد الموت[١]:

يأتيك الموت فتنتقل إلى عالم آخر، ففي أول وهلة وفي أول لحظة بعد انتقالك، تحدث نفسك: ما الذي أقبلتُ عليه؟ وما الذي ينتظرني؟ تحس مباشرة بأن ما أمامك هو جزاء أعمالك التي قدمتها في دنياك.

هلا تخيلت أيها الإنسان هذه اللحظة التي ستأتيك، هل تخيلت نفسك دخلت القبر ووحشته ووحدته، وترجو أن تعود، لتُعِدَّ ـ من جديد ـ لهذا اللقاء ولهذا القبر وما بعده.

لا تنتظر أن تأتيك هذه اللحظة وأنت على عمل غير صالح، وأنت على حال غير مرضي، ولا منجي، أعد لهذا اللقاء ولتلك الأهوال وما بعدها، عسى أن تكون من الفائزين.

يحملك الناس بعد موتك، يغسلونك، يصلون عليك، يدخلونك القبر، ويغلقون عليك، يأتيك الملكان منكر ونكير، في هيئتهما المهيبة، يسألانك: من

---

(١) وهذا الموضوع وبيانه وتفصيلاته وأدلته من موضوعات العقائد، لكن يحسن أن نُذكِّر أنفسنا والقارئ ببعض ذلك مختصراً، ليكون عوناً لنا على تزكية نفوسنا، مع التنبيه إلى أن تفصيلات اليوم الآخر لا تُعرَف إلا بالوحي، ومن واجبنا أن نقتصر في معرفة ذلك على ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، دون ما ورد في الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟ وليس الجواب جواب لسانك، وإنما الجواب جواب حالك وعملك وإيمانك، فإن صح إيمانك وحسن عملك وزكى حالك؛ كان الجواب سهلاً يسيراً، وإلا غاب الجواب عن عقلك وقلبك.

فيا نعم ما أنت مُقبِل عليه إن أحسنت الجواب، ويا بئس ما أنت مقبل عليه إن ضاع الجواب.

فإما نعيم من الجنة يروحك، وإما عذاب من النار يحرقك، أو تكون كالنائم، حتى إذا جاء يوم الدين قلت: لبثت يوماً أو بعض يوم.

حتى إذا نفخ في الصور، ليقوم العباد إلى ربهم، فيقفون في المحشر ينتظرون الصحف والحساب، فإما في هول[١] وحرّ وشمس قريبة[٢] وكرب عظيم وطول انتظار، وإما في ظل عرش الرحمن في الأمان والاطمئنان تمضي الأوقات وكأنها لحظات.

فما أعظمه من موقف وأنت تنتظر كتابك؛ أتأخذه بيمينك فتطير فرحاً،

---

(١) عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُراةً غُرْلاً» قُلْتُ: يا رسول الله الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعاً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ؟ قال: «يا عَائِشَةُ الأَمرُ أَشَدُّ من أَنْ يُهِمَّهُم ذلكَ»، وفي روايةٍ: «الأَمْرُ أَهَمُّ مِن أَن يَنْظُرَ بَعضُهُمْ إِلى بَعْضٍ» أخرجه البخاري رقم ٦١٦٢ ومسلم رقم ٢٨٥٩، واللفظ لمسلم، وقوله: «غُرْلاً»: «الغُرْلُ جمع الأغْرَل وهو الأقْلَف والغُرْلَة القُلْفة». قاله ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث ج٣، ص ٣٦٢. والأقلف: من لم يختن. انظر: ابن منظور، لسان العرب ج٩، ص ٢٩٠.

(٢) عن المِقْدَاد ﷺ قال: سَمِعْتُ رسولَ ﷺ يَقُولُ: «تُدْنى الشَّمْسُ يَومَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيل» قَالَ المِقْدَاد: فَوَالله مَا أَدْرِي ما يَعْني بِالميلِ، أَمَسَافَةَ الأَرضِ أَم المِيل الَّذي تُكْتَحَلُ بِهِ العينُ «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمالِهِمْ في العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُمْ منْ يَكون إِلى حِقْوَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلجاماً» وَأَشَارَ رسول الله ﷺ بِيدِهِ إِلى فِيه، أخرجه مسلم رقم ٢٨٦٤.

أو تأخذه بشمالك أو وراء ظهرك، فيشتد عذابك، بدءً بإنكارِك على نفسك، وندمِك على جهلك وغفلتك أو إساءتك وإعراضك، ويبدأ العذاب النفسي قبل الحسي، بمعرفتِك البؤس العظيم والعذاب الشديد الذي ستقيم فيه.

تذكر هذا الموقف، عند كل عمل، وتذكر أن ما في كتابك هو عملك، الذي سَجَّلَتْه الملائكة لك وأحصته عليك، ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، فاعمل ما تحب أن تراه في كتابك.

وما أجلَّه من موقف؛ وأنت تقف بين يدي رب العالمين، الإله العظيم ذي الجلال والإكرام، قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بيْنَهُ وبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمنَ مِنْهُ، فَلا يَرَى إِلاَّ ما قَدَّمَ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينْظُرُ بيْنَ يَدَيهِ، فَلا يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجهِهِ، فاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(١).

فبم يجيب أهل الكفر عن كفرهم، وهم يقفون عند الإله والرب الذي كفروا به، وهم عنه محجوبون يومئذ؛ عقوبة كفرانهم في الدنيا(٢).

وبم يدافع أهلُ المعاصي عن ظلمهم وسيئاتهم ومعاصيهم وسوء أخلاقهم وفاحش أقوالهم، وبم يعتذر المؤمنون الذي فرطت منهم بعض الهفوات والذنوب عن ذنوبهم وهفواتهم.

تخيل هذا الموقف، وكلما أردت أن تذنب ذنباً، انظر إلى موقفك بين يدي الله، وهو يسألك عن ذنوبك على مرأى الخلائق جميعاً، وأنت اليوم تستحيي من الذنب، وتستتر حتى لا يراك أحد من الخلق، وإذا بك هناك ربما تُفضح أمام

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٧٠٧٤ ومسلم رقم ١٠١٦، عن عَدِيِّ بنِ حاتمٍ ﷺ.

(٢) قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين:١٥-١٦].

الناس جميعاً، ثم تخيل أنه سائلك: تستحيي من خلقي، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً ولا ثواباً ولا عقاباً، وهم لم يخلُقوك ولم يملِكوك؟ ولا تستحيي من الله، وهو خلقك وأنعم عليك، وهو الذي يقدر على نفعك أو ضرك ويملك عقابك أو ثوابك؟ تستحيي من أمثالك، ولا تستحيي من ربك العظيم وإلهك الكريم؟

فاعمل أيها الإنسان ما يحبه منك مولاك اللهُ سبحانه، واترك ما لا يُرضيه، واترك ما تكرهُ أن يسألك عنه أو يفضحك فيه، فإن هيبة الموقف بين يدي شرطي أو قاضٍ ـ وهو يسألك عن جُرْمٍ ـ عظيمة، فكيف بهيبة الموقف بين يدي رب العالمين، يسألنا عن ذنوب كثيرات؟ لا بد أن لذلك هيبة ورهبة قد نعجز عن تخيلها وتصورها.

قال سبحانه: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

لا تظن أنك تجد مفراً، ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ٧-١٣]، ولا تظن أنك تستطيع أن تخادع الله، ولا تظن أنك تجد عذراً بين يدي الله، ولا تظن أنك تجد من يشهد لك شهادة تخالف الحقيقة، بل جسدك يشهد عليك بالحق، والأرض تشهد عليك: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤][1].

---

(١) روي حديث يوضح معنى الآية، والحديث ضعيف الإسناد، لكنه صحيح المعنى، =

أيها الإنسان.. أيها العبدُ..

لقد هيأ الله تعالى لك جنة، فهي محل لرحمته وثوابه، وفيها نعيمه وفضله، وعرَّفَك بها لتكون لها طالباً بإيمانك وأعمالك الصالحات، فإذا طلبتها فإنما تطلب رحمة الله، وإذا رغبت بها فليس لك إلا أن ترجوَها من الله مالكِها ومعطيها، فكن مؤمناً به مطيعاً له متقياً لغضبه؛ حتى يكرمك بها، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وأعدَّ ناراً، فهي محل غضبه ونقمته، وفيها عذابه وجحيمه، وأخبرك عنها لتتقيها وتحذرها، بمجانبتك الكفر والعصيان، فإذا خفت منها ومما يوصل إليها؛ فإنما تخاف من غضب الله ونقمته، وإذا حَذِرْت منها، فاحذر ممن يقدر على أن يعاقبك فيها، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فاعلم أنك حينما تعصيه كأنما تطلب النار، وكأنما تدعي القدرة على عذابها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، فاحذر أن تكون من الكافرين أو العاصين، فإنما النار لهما ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

ـ فما هي أوصاف الجنة وماذا أعد الله لك فيها؟

فيها صفاء النفوس وسلامة الصدور وراحة الأجساد، ودوام النعيم،

= أخرجه التِّرْمِذِي رقم ٢٤٢٩ وقال: حديثٌ حسنٌ غريب، وأحمد رقم ٨٨٥٤ وابن حبان رقم ٧٣٦٠ والحاكم رقم ٣٠١٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن أبي هريرة ﷺ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، ثم قال: «أَتَدْرُونَ مَا أَخبَارُهَا؟» قالوا: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «فَإِنَّ أَخْبَارَها أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وكذَا في يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، فهَذِهِ أَخْبَارُهَا».

وحسن الاستقبال والإكرام:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨].

لا خوف فيها، فيها السعادة بكل أشكالها، فيها كل ما تشتهيه، تطلبه فيأتيك، لا يحال بينك وبينه:

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣].

فيها اللباس الحسن والزوجة الحسناء والمنظر الأحسن:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

تخيَّل الشجر وضخامته، إذ تمشي تحت الشجرة مسيرة مائة عام(١)، حاول أن تتخيل جمال منظرها وجمال ثمارها وجمال رائحتها، وتذكر أن الله خلق في الجنة أموراً جميلة أخرى، لم نعرف مثلها في الدنيا ولا نستطيع تصورها.

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا» أخرجه البخاري رقم ٦١٨٦ ومسلم رقم ٢٨٢٨.

تخيل الحور العين وجمالها، وتذكر أنك حينما تأخذ حظك من النظر المحرم والشهوات المحرمة في الدنيا تحرم نفسك من ذلك النعيم، وشتان بين نعيم مقيم وبين نعيم زائل متكدر.

ومهما تخيلت من شأن الجنة وجمالها فإنها فوق ما تخيلت، فإنك لا تستطيع أن تتخيل إلا مما عرفت ورأيت وسمعت، والجنة فوق ذلك، قَال رسُولُ الله ﷺ: «قَال الله تَعالَى: أَعْددْتُ لعِبادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لاَ عيْنٌ رَأَتْ، ولاَ أُذُنٌ سَمِعتْ، ولاَ خَطرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ، واقْرؤُوا إنْ شِئتُمْ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا الا الأسماء»(٢)، فكأن ما نعرفه عن الجنة هو للتشويق، ففيها أنهار لكنها ليست كأنهار الدنيا، وفيها فواكه ليست كفواكه الدنيا، لا شكلاً ولا طعماً، بل ما يأتيك في الجنة يتغير كل مرة ليكون النعيم متجدداً: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «وأتوا به متشابهاً؛ في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم»(٣).

هذه الجنة لا كدر فيها ولا تشويش، ولا نهايةَ لها، قال رسُول الله ﷺ: «يُنادِي مُنادٍ [أي إِذَا دخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الجنَّةَ]: إِنَّ لكُمْ أَنْ تَصِحُّوا، فَلاَ تَسْقَمُوا

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٠٧٢ ومسلم نحوه رقم ٢٨٢٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه المقدسي، في الأحاديث المختارة ج ١٠، ص ١٦، وانظر: تفسير الطبري: ج ١، ص١٧٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ج ١، ص ١٧٣، وروي هذا التفسير عن عدد من الصحابة والتابعين.

أَبداً، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحيَوْا، فَلا تَمُوتُوا أَبداً، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تهْرَمُوا أَبداً، وإِنَّ لَكُمْ أَن تَنْعمُوا، فَلا تبأسوا أَبداً، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»(١).

وقال رسُولُ الله ﷺ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الجنَّةِ فِيهَا ويشْرَبُونُ، ولا يَتَغَوَّطُونَ، ولا يمْتَخِطُونَ، ولا يبُولُونَ، ولكِنْ طَعامُهُمْ ذلكَ جُشَاءٌ كَرشْحِ المِسْكِ، يُلهَمُونَ التَّسبِيح وَالتكْبِير، كَما يُلْهَمُونَ النَّفَسَ»(٢).

وقال رسُولُ الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يدْخُلُونَ الْجَنَّةَ على صُورَةِ الْقَمرِ لَيْلَةَ الْبدْرِ. ثُمَّ الَّذِينَ يلُونَهُمْ علَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ في السَّماءِ إِضَاءَةً: لاَ يُبولُونَ ولاَ يتَغَوَّطُونَ، ولاَ يتْفُلُونَ، ولاَ يمْتَخِطُون. أَمْشاطُهُمُ الذَّهَبُ، ورشْحهُمُ المِسْكُ، ومجامِرُهُمُ(٣) الْأَلُوَّةُ(٤)، أَزْواجُهُم الْحُورُ الْعِيْن، علَى خَلْقِ رجُلٍ واحِد، علَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدم سِتُّونَ ذِراعاً في السَّماءِ»(٥)، وفي رواية أخرى: «آنيتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، ورشْحُهُمْ المِسْكُ، ولِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِما مِنْ وراءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بينَهُمْ، ولا تَبَاغُضَ؛ قُلُوبهُمْ قَلْبُ رَجُلٍ واحِدٍ، يُسَبِّحُونَ الله بُكْرةَ وَعَشِيّاً»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٣٧ عنْ أَبِي سعِيدٍ وأَبِي هُريْرةَ رضِيَ الله عنْهُما، وقوله (تشبوا): أي تكونوا في سن الشباب وقوتهم وجمالهم، وقوله (لا تبأسوا): أن لا يصيبكم البؤس والشدة والسوء.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٨٣٥ عنْ جَابِرٍ ﷺ. وقوله: (يتغوطون): من الغائط، وهو قضاء الحاجة وإخراج الفضلات، وقوله: (جشاء): هو الريح الذي يخرج من الفم عند الشبع.

(٣) المجامِر: هي التي يوضع فيها الجمر ليُبَخَّر الطِّيب.

(٤) يعني: عُودُ الطِّيبِ.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٣١٤٩ ومسلم رقم ٢٨٣٤ عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٣٠٧٣ ومسلم رقم ٢٨٣٤ عن أبي هريرة ﷺ.

وقال رسُولِ الله ﷺ: «سأَل مُوسَى ﷺ ربَّهُ، ما أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزلَةً؟ قَالَ: هُو رَجُلٌ يجِيءُ بعْدَ ما أُدْخِل أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخِلِ الْجَنَّة. فَيقُولُ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ وقَدْ نَزَل النَّاسُ منَازِلَهُمْ، وأَخَذُوا أَخذاتِهِم؟ فَيُقَالُ لهُ: أَترضي أَنْ يكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيا؟ فيقُولُ: رضِيتُ ربِّ، فَيقُولُ: لَكَ ذَلِكَ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ، فيقُولُ في الْخَامِسَةِ: رضِيتُ ربِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وعشَرةُ أَمْثَالِهِ، ولَكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، ولَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رضِيتُ ربِّ، قَالَ: ربِّ فَأَعلاَهُمْ منْزِلَةً؟ قال: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَردْتُ، غَرسْتُ كَرامتَهُمْ بِيدِي وخَتَمْتُ علَيْهَا، فَلَمْ تَر عيْنٌ، ولَمْ تَسمعْ أُذُنٌ، ولَمْ يخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بشَرٍ»(١).

هذه الجنة التي تكتمل فيها معرفة العبد لربه، فيكون ذلك أعظمَ النعيم، عنْ جرِيرِ بْنِ عبْدِ الله ﷺ قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَنظَرَ إِلَى الْقمرِ لَيْلَةَ الْبدْرِ، وقَال: «إِنَّكُمْ ستَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِياناً كما تَرَوْنَ هَذَا الْقَمرَ، لاَ تُضامُونَ فِي رُؤْيتِهِ»(٢).

هذه الجنة العظيمة ألا تستأهل منك أن تشمر وتبذل الجهد والنفس والمال والغالي والنفيس، ألا تستأهل منك أن تتجرد عن شهواتك ومعاصيك التي تحول بينك وبينها، ألا تستأهل منك أن ترغب فيها وفي الأعمال التي توصلك إليها، «ألا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَاليةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ»(٣).

لا تغرنك شهوات الدنيا وما فيها، فما أهون الدنيا في جنب نعيم الجنة: قال رسُول الله ﷺ: «لَقَابُ قَوْسٍ في الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ علَيْهِ الشمْسُ أَوْ تَغْربُ»(٤).

---

(١) أخرجه مُسلم رقم ١٨٩ عن الْمُغِيَرةِ بْن شُعْبَة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٢٩ ومسلم رقم ٦٣٣ عن جرير بن عبد الله ﷺ.

(٣) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٠ والحاكم رقم ٧٨٥١ عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٢٦٤٠ عن أبي هريرة ﷺ.

هذه الجنة التي تتفاوت فيها المراتب بحسب تفاوت الأعمال في الدنيا، فاختر لنفسك تكون في أدنى الجنة أم تكون في أعلاها: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، فشمر همتك لأعلى النعيم فيها، قال النَّبِيّ ﷺ: «إنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءُوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَما تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ في الأُفُقِ مِنَ المشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ لتَفَاضُلِ ما بَيْنَهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: «بلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وصَدَّقُوا الْمُرْسلِينَ»(١).

ـ وما هي أوصاف النار وماذا أعد الله لأهلها فيها؟

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ(٢) وَحَمِيمٍ(٣) * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ(٤) * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ(٥) * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ(٦) * وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ(٧) * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ(٨) * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٤١-٥٦].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٠٨٣ ومسلم رقم ٢٨٣١ عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) السموم: الريح الشديدة الحرارة، تدخل المسام.

(٣) حميم: ماء بالغ الحرارة.

(٤) يحموم: دخان شديد السواد.

(٥) لا كريم: لا نافع من أذى الحر.

(٦) الحنث العظيم: الشرك.

(٧) زقوم: شجر كريه جداً في النار.

(٨) شرب الهيم: كما تشرب الإبل العِطاش التي لا تَرْوى.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۞ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۞ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ(١) ۞ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

﴿ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۞ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۞ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۞ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۞ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۞ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٠- ٤٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۞ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

ولا يكفيهم عذابهم الجسدي، بل يعذبون نفسياً بما يتحسرون على حياتهم وما عملوا فيها: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۞ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ۞ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۞ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

﴿ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴾ [سبأ: ٥٤].

(١) مقامع من حديد: سياط من حديد يجلدون بها.

أَبَوْا أن يذلوا لله في الدنيا بطاعته وعبادته، فلازمتهم أشد الذلة يوم القيامة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ(١) مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيامَة لَرَجُلٌ يُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدميْهِ جَمْرَتَانِ يغْلِي مِنْهُما دِمَاغُهُ، مَا يَرى أَنَّ أَحداً أَشَدُّ مِنْه عَذَاباً، وَإِنَّه لأَهْونُهُمْ عذَاباً»(٢).

قال رسول الله ﷺ: «ضِرس الكافر ـ أو ناب الكافر ـ مثل أُحُدٍ(٣)، وغِلَظُ جلده: مسيرة ثلاث(٤)»(٥).

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فقال: «لو أن قَطْرة من الزقوم قَطَرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامهم»(٦).

فاحذر أيها الإنسان أن تعمل عملاً يؤدي بك إلى هذه المهلكة، وإلى ذلك

---

(١) ترهقهم ذلة: أي تغشاهم.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢١٣ عن النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري رقم ٦١٩٣ إلى «دماغه».

(٣) أي مثل جبل أُحُد.

(٤) أي مسيرة ثلاثة أيام، أي ما يساوي نحو ثمانين كيلو متراً، فيتعذب بكل هذا الجسد في ضخامته.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٢٨٥١ عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٥٨٥ وابن حبان رقم ٧٤٧٠ والحاكم رقم ٣٦٣٨ ونحوه أحمد رقم ٢٧٣٥.

العذاب الأليم المقيم، ولا تنس هذه الحقيقة عندما تعمل عملاً أو تقول قولاً أو تنوي نية أو تفكر في أمر.

اجعل صورة الجنة وصورة النار أمام عينك، والموجه لك في أعمالك، لا تهرب من التفكير في هذه النهاية، ولا تكن من الغافلين عنها: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ(١) * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥٤].

تلك الجنة وتلك النار؛ إحداهما مستقرك أيها الإنسان، فتفكر وتأمل في مصيرك، واستعد له، وأكثر من قراءة القرآن فإنه يعرفك بمستقرك ويذكرك به، ويعرِّفك بما يجب أن تكون عليه.

إليك هذا الحديث الطويل يبين بعض أنواع العذاب التي تصيب أهل المعاصي في الآخرة، في رؤيا رآها رسول الله ﷺ، ورؤيا الأنبياء حق:

عن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا»، قَالَ فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِى اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِى، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِى: انْطَلِقْ. وَإِنِّى انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِى بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ(٢) رَأْسَهُ فَيَتَهَدْهَدُ الْحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى. قَالَ قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ الله مَا هَذَانِ، قَالَ: قَالاَ لِي: انْطَلِقْ - قَالَ - فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ

(١) أي: كأنهم حمير يهربون من أسد يلاحقها، وهكذا شأن الغافلين الهاربين من تذكر الآخرة.

(٢) يكسر.

قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ[1] إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ - قَالَ وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ فَيَشُقُّ - قَالَ ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى. قَالَ قُلْتُ سُبْحَانَ الله مَا هَذَانِ قَالَ قَالاَ لِي: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ - قَالَ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ - قَالَ - فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا[2] - قَالَ - قُلْتُ لَهُمَا مَا هَؤُلَاءِ قَالَ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. قَالَ فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا - قَالَ - قُلْتُ لَهُمَا مَا هَذَانِ قَالَ قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. قَالَ فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْآةِ كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلاً مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا - قَالَ - قُلْتُ لَهُمَا مَا هَذَا قَالَ قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لاَ أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولاً فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ - قَالَ - قُلْتُ لَهُمَا مَا هَذَا مَا هَؤُلاَءِ قَالَ قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلاَ أَحْسَنَ. - قَالَ - قَالاَ لِي: ارْقَ فِيهَا. قَالَ فَارْتَقَيْنَا فِيهَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ

---

(١) جانب فمه.

(٢) أي ضجوا واستغاثوا.

مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ – قَالَ – قَالاَ لَهُمُ اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ. قَالَ وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ فِي الْبَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ – قَالَ – قَالاَ لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ فَسَمَا بَصَرِي صُعُدًا، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ – قَالَ – قَالاَ هَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ قُلْتُ لَهُمَا بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا، ذَرَانِي فَأَدْخُلَهُ. قَالاَ أَمَّا الآنَ فَلاَ وَأَنْتَ دَاخِلُهُ. قَالَ قُلْتُ لَهُمَا فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ قَالَ قَالاَ لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، **أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ** الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، **فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ**، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، **فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ**، وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ **فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي**. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الْحَجَرَ، **فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا**، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ». قَالَ فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَا رَسُولَ اللهِ وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ، وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنًا وَشَطَرٌ مِنْهُمْ قَبِيحًا، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ»(١).

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري رقم ٦٦٤٠ عن سمرة بن جندب ﷺ.

ـ فماذا أعددت لما بعد الموت:

إذا عرفنا أنه عما قليل نرحل إلى الآخرة، وعرفنا ما في الآخرة من ثواب أو عقاب، وأنه لا بد يوماً من الرجوع إلى الحاكم العظيم الحكم العدل ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]، فماذا أعد أحدنا لذلك اللقاء؟ ماذا أعد ليوم الحساب؟ ماذا سيستقبل؟ نعيماً أم عذاباً؟

هل أعددت للقاء ربك وحسابه نفساً زكية وإيماناً ونية صادقة وعملاً صالحاً: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فلئن كنت أعددت عملاً صالحاً فلتفرحن: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ٩]، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۞ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠]، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ٧-٩].

أم أعددت كفراً وعملاً سيئاً فتفاجأُ بالموت وهوله، وتتحسر وتندم وترجو الرجوع: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۞ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧].

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

وتتمنى أن لو كنت تراباً بعد العز والجاه والكبرياء والإعراض الذي كان منك في الدنيا: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

يومئذ تعرف أن حياتك الحقيقة هي الآخرة، فتندم أن اجتهدت في عمارة الدنيا وأهملت عمارة الآخرة: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۞ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۞ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٣-٢٦].

فها أنت ما زلت هنا في الدنيا، فانتبه واستيقظ، وأعد لها قبل أن تخرج منها، فلا يُقبل يومئذ إيمان ولا عمل، ليس إلا الندم والعقاب ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

ـ وَزِّنْ أعمالَك في الدنيا بميزان الآخرة:

إن أي عمل تعمله في الدنيا إنما تكون قيمته بحسب جزائه يوم القيامة، تلك قيمته الحقيقية، وهذا هو الميزان الذي يجب أن يكون حاضراً في ذهن الإنسان عندما يقوم بأي عمل، ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨].

فلئن تعبت كثيراً في عمارة قصر وبذلت فيه كثيراً من مالك ووقتك، ثم مُتَّ وتركته وراءك، ما تكون قيمته في الآخرة؟ إلا أن تحاسب على تضييع وقتك، وانشغالك عن طاعتك، وإسرافك في مالك، بدل أن تبذله في ما أوجب الله عليك أو ندبك إليه.

ولئن سكنت بيتاً متواضعاً وبذلت مالك في إطعام جائع أو كسوة عارٍ أو في طلب علم أو في دعوة إلى دين الله، وبذلت جهدك في صلاتك وصيامك

وجهادك وعلمك وأنواع الطاعة؛ فما أعظم قيمتها عند الله، وما أعظم ثوابها، وما خسرت من دنياك شيئاً، إذ لا مقارنة بين الدنيا التي تنتهي وبين الآخرة التي لا انتهاء لها ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

ومهما أصابك من تعب وضنك ومشقة، ومهما بذلت من جهد، إذا كان قد طلبه الله منك، فهو ذو قيمة في الآخرة عظيمة، فيبقى الأجر العظيم والنعيم المقيم، وتَنتهي الأتعاب وتُنسى، يوم «يؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مَرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»(١).

ولئن أخذت شهواتك وزنيت وشربت الخمر وظلمت وغششت وأكلت مال غيرك وسكنت القصور وفرحت بزينة الدنيا؛ فما قيمة ذلك في الآخرة يوم «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب»(٢).

فانظر ما أهون لذات الدنيا في جنب عذاب الآخرة؟

فلا تستثقل طاعة، فهي راحتك غداً، ولا تخدع نفسك بمعصية، فهي عذابك وشقاؤك غداً.

فالسيارة الفارهة التي تشتريها وتركبها، واللباس الثمين، والطعام الفاخر، والقصر الكبير، والمصانع العظيمة، والجاه العريض.. ليست قيمتها

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٠٧ عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٨٠٧.

ما تظنه اليوم، وليست قيمتها ما يعظمك لأجلها الغافلون، ولا ما يتفاخر به أهل الدنيا منها، وإنما قيمتها ما تجد من حسابها في الآخرة: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

فانظر إلى أعمالك في الدنيا بمنظار الآخرة، وبميزان الحق، ولا تلتفت إلى موازين الناس، ولا تغرنك زخارف الدنيا وبهارجها: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

لا يكن ميزانك دنيوياً، تستكبر عن أمر ربك، وتطلب الجاه والنعيم والعلو في الدنيا، وتنسى ربك وتكفر به، وتظن نفسك على خير، فإذا جئت إلى الآخرة لم تجد وزناً لأعمالك، بل خاب ظنك وخسرت كل شيء: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

اجعل ما أعطاك الله لعمارة آخرتك، ولا تعمر من دنياك إلا ما ينفعك في دينك وآخرتك، ويوزن لك يوم القيامة ثقيلاً، استعمل دنياك لآخرتك، ولا تكن ممن تعلق بالدنيا وظنها محل الخلود، ونسي آخرته الباقية، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

قَدِّم عملاً وإحساناً لتجزى من جنس عملك: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]. لتجزى على إحسانك إحساناً، ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وإذا كنت في أي وقت مخيراً بين عملين فَوَزِّنْهما بميزان الآخرة، واختر ما هو خير لك هناك:

فإذا وجدت فراغاً في وقتك، يمكن أن تملأه بقراءة القرآن أو بقراءة قصة خيالية، فأيهما أنفع لك في الآخرة.

أو خُيِّرْتَ بين الجلوس إلى تمثيلية أو برنامج أكثره اللغو، وبين الجلوس إلى العلماء والصالحين في طلب العلم والحث على صلاح النفس وخيرها؛ فاسأل نفسك: أيهما خير لك، ولا تغش نفسك.

وإذا زاد مِن مالِك عن حوائجك الأصلية، يمكن أن تصرفه في قضاء حاجة فقير أو مداواة فقير، ويمكن أن تصرفه في دعوة إلى الله، ويمكن أن تصرفه في تغيير سيارتك إلى سيارة أفخم، ويمكن أن تصرفه في سفر للنزهة والترفيه، فاسأل نفسك: أي ذلك خير لك في الآخرة.

اجعل الآخرة أمام عينيك، ما كان من خير فيها فاحرص عليه، وما كان من شر فيها فاحذر منه، اجعل ذِكر الجنة هو الدافع والباعث لك إلى كل خير وطاعة، واجعل ذِكر النار هو الحاجز لك عن كل شر وعصيان، فإذا صرت بحيث لا تعمل عملاً و لا تترك عملاً إلا بحسب النظر إلى الآخرة؛ فقد صرت مخلصاً لله، تزين بميزان الله، ليس في قلبك التفات إلى الدنيا، ولا إلى موازين أهل الدنيا، هذه ثمرة تَذَكُّرِ اليوم الآخر: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦].

وإذا كان الإنسان قد عرف أن الدنيا لا تستأهل أن تكون هدفاً له، وأن الآخرة هي هدفه الذي يسعى إليه، وأن سعيه إلى هذه الآخرة إنما يكون بالرجوع إلى أحكام الله التي جاءتنا عن طريق رسول الله ﷺ.

إذا عرف الإنسان ذلك فلا بد أن يعرف أيضاً أن هذا الرجوع إلى أحكام الله ينبغي أن يكون دائماً في كل وقت، وشاملاً لكل أمورنا وأعمالنا وتصرفاتنا، ولا يجوز أن نعطي حق الحكم لأنفسنا ولا لغيرنا من الخلق، وهذه المسألة ذات أهمية كبرى، وآثارها في الحياة كبيرة جداً، وأثرها في تزكية النفس عظيم؛ لذلك كان لا بد من تخصيصها بالبيان والتفصيل، فإلى ذلك:

المبحث السادس

ما هي الأحكام والقوانين التي تضبط علاقاتي، وأسير عليها في حياتي؟

إن كل تصرف أو موقف في الحياة من فعل أو قول أو تفكير أو توجه أو قرار؛ كل ذلك ينبغي أن نرجع فيه إلى مالكنا ومالك كل شيء، إلى الله، **فصاحب الملك أحق بأن يحكم في ملكه ومخلوقاته كما يشاء.**

هذه الحقيقة التي تعرفها العقول وتدركها إذا استقرت في ذهن الإنسان وعمل على أساسها، هي التي تدفعه إلى العمل بالأعمال التي تزكي نفسه، الأعمال التي حكم الله بها وأنزلها تشريعاً لنا لِيُصلِحَنا به، وليخرجَنا بها من الفساد والتدسية.

ـ الله هو الذي خلقنا وأوجدنا ويملكنا، وهو الذي يُمِد كل مخلوق ويتصرف فيه، ويبقيه أو يفنيه، ويثيبه أو يعاقبه، فالكل خاضع لقدرته، فيجب أن يخضع لحكمه وأمره، قال الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، يخاطبنا الله تعالى بالمنطق السليم أنه ما دام الكل مستسلماً لقدرته وخاضعون تحت قهره وقَدَره، فالواجب أن لا يخرجوا عن دينه وأمره: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟، وقال تعالى ذاكراً قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهو ينصح رفيقيه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٣٩-٤٠]، فبين أن القهار وحده هو الذي ينبغي أن يخضع له الكل، فلا حكم لسواه في ملكه، ولا عبادة لغيره، وهذا هو الطريق المستقيم القويم.

وإذا أردنا أن نخضع لربنا وخالقنا وإلهنا، فعلينا أن نعيش كما يشاء في كل شيء؛ في نياتنا وعباداتنا وأعمالنا ومعاملاتنا وأخلاقنا، وأول ذلك أن نعترف أن له الحقَّ في أن يحكم علينا، فمن لم يعترف بأن الحكم له فهو كافر بالله وبحقه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومن اعترف بذلك لكنه خالف حكم الله عن عصيان وتهاون؛ كان فاسقاً خارجاً عن الطاعة رغم اعترافه بحق الله في أن يطاع: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، ومن خرج عن حكم الله ـ عصياناً أو جحوداً ـ كان ظالماً لنفسه، وقد يكون ظالماً للناس إذا كان بعصيانه مانعاً لهم من حكم الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[المائدة: ٤٥].

وكيف نعطي الحكم لغير الله، وغير الله مخلوقٌ مثلُنا، فصاحب الأمر لا بد أن يكون أعلى رتبة من المأمور، وليس أحد أعلى من الخلق إلا خالقهم، وقد نبه الله عقولنا إلى أن الأمر والحكم لا يكون إلا للخالق فقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومهما كان المخلوق عالماً أو حكيماً أو خبيراً فلن يكون عنده مثل علم الله ولا حكمته ولا خبرته ولا إحاطته بخلقه ولا معرفته بما هو أنفع لخلقه في الدنيا والآخرة، فكيف يستوي تشريع الخلق ـ سواء كانوا علماءَ أو قضاةً أو حكاماً أو غيرَهم ـ مع تشريع الخالق، لذلك أنكر الله سبحانه على من أشرك معه غيرَه في الحكم والتشريع: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وكل حكم يخالف حكم الله فإنما هو جهل، فكيف ترضى به:

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وكيف لا يكون جهلاً وهو يخالف علم العليم الخبير؟

ومن يرى لنفسه أو لغيره الحقَّ في أن يحكم بغير أمر الله؛ فهو ضالٌّ جاهل بالله منكر لحق الله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فلا يكون المؤمن إلا مستسلماً لأمر الله راضياً به، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فلو أن إنساناً ظن في نفسه أن حكم الله غير سليم أو غير عادل أو غيره أحسن منه فلا يكون مؤمناً حقاً، حتى لو عمل به، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

ولا يكفي أن يستسلم الإنسانُ لله في بعض أحكامه ويعترض على أخرى، بل لا بد أن يستسلم لجميع أحكامه حتى يكون مؤمناً، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ولا يمكن للمؤمن أن يفكر في أن يقترح على الله رأياً، ولا يمكن أن يظن أن الله يجهل أمراً أو يظنَّ أن الله لا يفرق بين الخير والشر، ولا يمكن لمؤمن أن يقدِّم أمراً على أمر الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ومن يعطي لنفسه الحقَّ في التشريع بخلاف أمر الله، فإنما هو مستكبر على الخلق يميز نفسه عليهم وهو مثلُهم، فيجعل لنفسه الحق في أن يطاع، وينازعُ

الله في هذا الحق، فيعطي لنفسه حقاً من حقوق الإله بأن يجعل لنفسه الحكم بغير حق، ويستكبر على الخلق بذلك، لذلك سماه الله طاغوتاً فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٥٧]، فكيف يطيع هذا المستكبر الطاغوت إلا جاهل مخدوع؟

- إنَّ إدراكنا بأن الحكم لله؛ هو الذي يدفعنا للحرص على طاعة الله واتباع أمره والاستقامة عليه، وهو الذي يحملنا على الاعتصام والتمسك بالكتاب والسنة، ولا تتم تزكية إلا بوجود هذه الطاعة وتلك الاستقامة.

فلا معنى أن نتحدّث في تزكية العقل والقلب والجسد، في جانب العقيدة أو العبادة أو المعاملة والسلوك أو الأخلاق، أو أي جانب من جوانب الحياة؛ لا معنى لهذا الحديث مع الغفلة عن هذه الحقيقة بأن الحكم لله، فلا بد أن تكون هذه القضية ثابتة راسخة واضحة، فهي المبدأ الأصيل الذي تنبثق القيم والتشريعات والأخلاقيات والسلوكيات الصحيحة، وإلى هذا المبدأ الأصيل يجب أن نحاكم أنفسنا ومواقفنا وتصوراتنا وواقعنا.

ومن فهم هذه الحقيقة ومشى على أساسها وبنى حياته عليها في اعتقاده وقيمه وثقافته وأخلاقه وأقواله وأعماله وتفكيره وتقاليده؛ كان رجلاً ربانياً، لأنه يسير وفق رسالة ربانية في مصدرها وغايتها، وإذا سارت البشرية وفق هذه الحقيقة فذلك هو الذي يصحح عقائدها ويقوم سلوكها، وذلك الذي يرتقي بالإنسانية نحو الغايات السليمة، ويحقق الكمال في تزكية البشرية وطهارتها، لذلك فالعالَم كله بحاجة إلى هذه الثقافة المنطقية، التي تردُّنا إلى هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

وإذا كانت الأمم قد صنعت ثقافتها بفكر العقول القاصرة والأهواء المائلة؛ ومع ذلك تصر على هويتها وثقافتها وقيمها وتمايزها، فكيف بمن كانت ثقافته ربانية كيف يتخلى عنها أو يفرِّط بشيء منها أو ينام عن الدعوة إليها، وقد عرفنا أنها الحق وأنها من عند الله الحق سبحانه.

ومَنْ طَلَبَ معرفة هذه الحقائق وفَهِمَها عَلِمَ أن ما حَكَمَ به الله هو الذي يخرجنا من الغفلة واللهو والضياع والانحراف، إلى السعادة واليقظة والاستقامة والحياة: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ـ وقد علمت أن صاحب الحق في الحكم هو الله وحده، وكل خلقه محكومون بحكمه، بمن في ذلك رسل الله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام، فليس لهم أن يخرجوا عن حكمه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وإنما جاءت الشرائع تأمر باتباع الأنبياء لا على سبيل جعل الحكم لهم، وإنما لأنهم قد أرسلهم الله وعرفهم بحكمه، فإنما يحكمون بحكم الله، فاتباعهم اتباع لحكم الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فهم لا يحكمون إلا بما علمهم الله وكما أمرهم، قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

ـ وكذلك ما يحكم به العلماء والمجتهدون في دين الله؛ فلا يعتبر ذلك حكماً من عندهم، وإنما هم راجعون فيه إلى أحكام الله، ويستعملون أدلة الشرع والأصول التي أقامها، والقواعد التي جعلها مَعالِمَ لمعرفة أحكام الله واستنباطها، فما يأخذه الإنسان عن العلماء بدين الله لا يكون رجوعاً إلى غير حكم الله.

والإنسان العاميّ يحتاج إلى صحبة العلماء ليتعلم منهم ويعرف أحكام الله، التي يجب أن تضبطه في حياته، ويبحث المسلم عن العلماء الصادقين الأتقياء،

الذين يتحرّون ويجتهدون غاية الجهد في معرفة أحكام الله، ولا يتجرؤون على الفتوى، ليكون مطمئناً أنه حينما يعمل بما عَلَّموه قد عمل بحكم الله حقاً.

ـ وإذا أدركنا أنه لا يكون الحكم إلا لله، وأن حكم الله بلغنا عن طريق رسول الله ﷺ فيما جاء به من كتاب وسنة، من قول أو فعل أو غيره، فإن مظهر الرجوع إلى حكم الله هو الرجوع إلى الكتاب والسنة، ففيهما أحكام الله، وحتى يزداد أحدنا حرصاً وتمسكاً واعتصاماً بالكتاب والسنة؛ أُورِدُ بعض النصوص الشرعية التي تأمرنا وتحثنا على الاعتصام بهما:

الأمر بطاعة الله عَجَلّ ورسوله ﷺ والتمسك والاعتصام بمصادر الأحكام: الكتاب والسنة

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]، فالقرآن بيان للحق، وهو سبيل الهداية إلى المطلوب من الخلق، ولا ينتفع منه ولا ينال ما فيه من رحمة إلا من خضع للحق فآمن به.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، فلا صلاح ولا إصلاح في البشرية بغير تمسك بالقرآن وعقائده وأحكامه، ومن تركه فقد تاهَ ولم يَدْرِ كيف يعيش حياته وماذا يعمل فيها وكيف يفوز بعدها.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥]، فالنبي ﷺ إنما يحكم بالحق الذي أراه الله إياه وعلمه إياه، فكل الشريعة من الله وحده، والنبي ﷺ إنما هو رسول ومبيِّن ومبلغ لأمر الله سبحانه.

ومِنْ تمسُّكنا بالقرآن الكريم أن نتمسك بما ثبت عن النبي ﷺ، لأن القرآن هو الذين أمرنا بذلك، فقد أخبرنا القرآن بأن سنة النبي ﷺ وأقواله هي من عند الله، وما كان من عند الله يجب اتباعه، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ١-٤].

وأخبرنا القرآن أن الله أعطى رسوله ﷺ سلطة بيان أحكام القرآن، لأن في القرآن أحكاماً مُجْمَلَة تحتاج إلى تفصيل وبيان، لا نستطيع القيام بتكاليفها إلا

بعد بيانها من النبي ﷺ الذي جعل الله البيان له، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وأمرنا الله بطاعة رسوله، وجعل ذلك مع طاعة الله سبباً في الرحمة، فقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وجعل طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، فالله علمه الحق وهداه إليه وحفظه عليه، فكل قوله وفعله موافق لمراد الله، قال جل جلاله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وأمرنا الله تعالى باتباع ما يأتينا من عند الرسول ﷺ، وبترك ما نهانا عنه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وأوجب علينا ردَّ ما نختلف فيه إلى الله وكتابه، وإلى الرسول وسنته، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فليس للعلماء أن يجتهدوا خارج نطاق الكتاب والسنة.

وأوجب علينا قبول ما يحكم به النبي ﷺ وجعل ذلك شرطاً من شروط الإيمان، فقال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وليس لأحد أن يختار متابعة شرع الله أو عدمه، وليس لأحد أن يختار من شرع الله ما شاء ويترك ما شاء، فالأنبياء لم يبعثوا عبثاً، بل يجب طاعتهم وقبول قضائهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]،

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وحذر الله من مخالفة النبي ﷺ ورتب على ذلك العقوبة الأليمة، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ومما جاء في السنة يحثنا على طاعة النبي ﷺ ومتابعته:

أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(١).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»(٢).

وقال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٣).

وقال النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٨٥١، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقوله: (أبى) أي امتنع عن الإيمان أو امتثال الأمر.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٦٧٦، وقال: حسن صحيح، ونحوه أبو داود رقم ٤٦٠٧، وغيرهم، (النواجذ): الأنياب، وقيل الأضراس، والمراد: تمسكوا بالسنة تمسكاً شديداً.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٥٥٠، ومسلم رقم ١٧١٨.

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٧١٨.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضاً لم يُشَبْ[1]، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب بدَّلوا كتاب الله وغيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا، واللهِ ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[2].

وعن أنس بن مالك ﷺ: أنه سمع عمر ﷺ، الغَدَ[3] حين بايع المسلمون أبا بكر ﷺ، واستوى على منبر رسول الله ﷺ، تشهَّد قِبَل أبي بكر فقال: أمَّا بعد، فاختار الله لرسوله ﷺ الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم، فخذوا به تهتدوا لما هدى الله به رسوله»[4].

أحكام الله تشمل العبادات والمعاملات:

ـ وإذا كانت العبادات من أحكام الله التي لا يحق لأحد أن يتدخل في تشريعها، لأن الله له الحق أن يُعبَد كما يشاء وكما يختار، فكذلك المعاملات لا يحق لأحد أن يتدخل في تشريعاتها ويخالف فيها أمر الله، لما بينا من أن الله هو صاحب الحق أن يحكم في كونه وخلقه كما يشاء، وحتى نزداد حرصاً على أحكام الله في المعاملات نبين لك نماذج كيف أن تشريعات الله في المعاملات هي تشريعات منطقية، وهي تحقق مصالح العباد على الوجه الأكمل، نبين ذلك في المبحث الآتي:

---

(١) (محضاً) أي خالصاً، ليس فيه تغيير ولا تبديل ولا تحريف، (لم يُشَبْ): أي لم يختلط، ولم يداخله باطل.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٩٢٩.

(٣) أي في اليوم التالي لوفاة النبي ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٦٨٤١.

المبحث السابع

كيف أتعامل مع الخلق والكون على وجه المصلحة

ـ يحاول الإنسان العاقل أن ينتفع من هذا الكون كله، بأرضه وسماواته وجميع مخلوقاته، والله أخبرنا أنه سخر جميع ذلك للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، وهذه المخلوقات ينتفع منها الإنسان على طرائق مختلفة، فمنها ما ينتفع منه في طعامه وشرابه، ومنها ما ينتفع منه في تنقله، ومنها ما ينتفع منه في سكنه ولباسه، ومنها ما ينتفع منه في معرفة الطريق والجهات، ومنها ما ينتفع منه في فكره واستدلاله على خالقه وربه، وغير ذلك.

ولكن هذا **التسخير** مرتبط بحكمة الله وأحكامه، إذْ إن الانتفاع من هذا الكون وما فيه؛ لا بد فيه من الرجوع إلى خالقه، إذ قد بين لنا كيف نستعمله وننتفع منه.

فلله في هذا الكون حِكَمٌ، منها الابتلاء: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ولله فيه أحكام، فبعض مخلوقات الله خلقها مسخرة لابتلاء العبد، فيكون انتفاع العبد بتركها والوقوف عند حكم الله فيها، من قتل أو اقتصار على ما أباح الله منها، أو غير ذلك، فبعض المؤذيات كالعقرب أمرنا بقتلها، والخمر والخنْزير لم يسمح بأكلها، وجمال النساء لم يسمح بالاستمتاع به إلا في حدود العفة والزواج، لا للزنا والتعري.

وجاءت شريعة الله لِتَأْذَنَ باستعمالِ ما سَخَّرَ اللهُ على وجهٍ يوافق مراد الله من إيجاده وخلقه، لا معارضاً، وجاءت هذه الأحكام الشرعية لتأمر بتحقيق العدل والتوازن بين الفرد والمجتمع، فما كان مسخراً لجهة خاصة لا يعني أن يكون مسخراً للكل، وما كان مسخراً على وجه خاص لا يعني أن يكون مسخراً على كل حال، وما كان مسخراً لك ربما يمنع عن غيرك، وما كان لغيرك ربما يمنع عنك.

سخر لك الطعام، لكن حكم عليك فيه، أن لا تأكل أشياء حرمها عليك، وحرم عليك الأكل في وقت أمرك فيه بالصيام...

سخر لك المال، لكن حرم عليك أنواعاً من المعاملات، فيها ظلم للآخرين، كالربا، أو فيها انحراف عن أخلاق الصدق والتعاون فحرم عليك الغش وأكل المال بالباطل والرشوة والاستغلال...

وهكذا تجد كثيراً مما يقع فيه الناس من الباطل والحرام، إنما وقعوا فيه لتوهُّم أنه مسخر لهم جملة وتفصيلاً، وإنما سخره الله وفق حكمة وأحكام.

- لا يجوز للإنسان أن يتوهم أن له **الحرية** في ملك غيره، ومن كان في ملك الله؛ فعليه أن يرجع إلى أحكام الله ويتقيد بأوامره، وتبقى حدود الحرية هي تلك التي أعطاه اللهُ الحريةَ فيها، فَأَذِنَ له أن يعمل ما يشاء فيها، فهذه هي حدود الحرية التي لا تجاوز الحق، ولا تكون تعدياً ولا ظلماً.

حينما يفرض الخالق شيئاً على خلقه؛ فلا حرية لهم، وإنما الحرية من وراء العبودية والطاعة لله.

ومن خرج عن عبادة الله وطاعته فإنه لا يكون قد خرج إلى الحرية، وإنما يتحول من عبادة الله الذي يستحق أن يُعْبَد، إلى عبادة غيره ممن لا يستحق أن يُعبَد، فإما أن يتحول إلى عبادة نفسه وهواه وشهواته المنحرفة وعقله القاصر،

وإمـا أن يتحـول إلى عبادة غيره مـن الناس، فيطيع الحاكـم أو القاضي أو رأس العشـيرة أو رئيـس الحـزب أو رأي العامـة والشـعب، ويتنازل عن رأي نفسـه وعن شهواته بأمر هؤلاء، ويترك حكم الله، على الرغم من أنه هو الوحيد الذي يسـتحق أن يحكم، وهو الأعلم والأحكم وهو الأخبر بنفوسـنا وما يصلحها، فمن ظن أنه حينما خرج عن حكم الله وعبادته صار حراً؛ فقد توهم، وإنما خرج مـن العبودية اللائقة السـائغة إلى العبودية غير اللائقة وغير السـائغة، خرج إلى عبـادة مخلوق لا يسـتحق أن يعبـد، فصار بذلك أيضاً عبداً لا حراً، وقيَّد نفسـه بـما لا ينفعـه، وخرج عن العبودية لله التـي تنفعه، والتي ينال بهـا الجنة والرحمة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ـ وقـد يتوهـم كثير من الناس أن الحرية يمكن أن تكـون مطلقة، فيفعل الإنسـان ما يشـاء، حتى ولو كان على حساب المجتمع والناس عامةً، وهذا ما حاوَلَـتَ العلمانية الرأسـمالية أن تغري به مجتمعاتهـا، فأعطتهم حرية كاملة في المـال والتجارة، وحرية كاملة في الفسـادة والشـهوة وما يتعلـق بالمرأة، وعلى الرغـم من أنهم يقيدون كثيراً من الحريات الخاصـة لمصلحة المجتمع والعامة؛ فإننـا نجدهـم قـد خالفـوا القاعـدة في أمـر المـرأة والمـال، حتـى ولو أضرت بالمجتمع، والمنطق السـليم يقول: إن الفرد واحد، والمجتمع أعداد كثيرة، فإذا تعارضـت مصالح الكثير مع مصالح الفـرد؛ فيجب أن تقدم مصلحة الأكثر، فهـذا هو الحـق، وهذه هي روح الحريـة والعدل، أمـا أن يُعطَى الفـردُ حرِّيتَه ويُمنع المجموعُ والأكثرُ حريتَهم؛ فذلك سـلب للحرية وهدم وتقييد، وانهيار لقيمة الحرية.

والله تعـالى راعى في تشريعاتـه جميعاً أن تكون مصلحـة المجتمع مقدمة عـلى مصلحـة الفرد، مع إعطاء الفرد مصالحه وحرياته على أحسـن ما يمكن،

مع تحقيق ما يريده الله من أحكام وعبودية، فإن العبودية لا تعني أن يُمنع الناسُ مصالِحَهم، بل العبودية كلها لتحقيق مصالح الناس، لكن في الدنيا والآخرة.

ـ المعاملة مع الناس يدخل فيها المعاملات المالية، والأحوال الشخصية، والعلاقات الأخوية والعلاقات الداخلية في الدولة، والعلاقات الخارجية الدولية، وغير ذلك.

والمعاملة مع الكون يدخل فيها الكسب والعمل الدنيوي الذي يأخذ فيه الإنسان حاجته مما خلق الله، فما الذي يطلب الإنسان من ذلك وما الذي يأخذه ويستفيد منه ويرغب فيه، وما الذي يترك منها ويزهد فيه.

إن من جوانب تزكية النفس حسن المعاملة مع الناس ومع الكون، وجريان هذه المعاملات وفق الأحكام التي أمر الله بها، ولا بد أن يكون عند الإنسان تصور عقلي صحيح عن هذه المعاملات حتى ينجح في معاملاته وعلاقاته المتعلقة بذلك، لذلك فالعاقل يتساءل: ما هو المنطق العقلي والأساس الشرعي للأحكام التي يجب أن أتعامل على أساسها مع غيري من الخلق ـ أفراداً وجماعات ـ ومع ما سخر الله لي في الكون.

ـ لقد شَرَّعَ الله أحكاماً للمعاملات مع الناس والكون؛ كما شرع أحكاماً للعبادات، وتشريعات المعاملات في جملتها قائمة على **المصالح والأخلاق** المحمودة، فالله تعالى أباح ما فيه مصلحةٌ للعباد، وحرم ما فيه مفسدةٌ لهم وضرر، وأقام أحكام هذه المعاملات لتحقق العدل وتمنع الظلم، وأقامها على الصدق والوضوح ومنع الغش والجهالة، وشرعها بحيث تؤدي إلى التآلف وتحول دون إنشاء الخصومات والبغضاء. وهذه جميعاً أمور يدرك العقل حسنها ومصلحتها ونفعها.

والأخلاق التي تضبط المعاملات كلُّها جمال وخير، فالنفوس السليمة ترغب بها وتطلبها وتتخلق بها، ولا يمكن أن تكون الأخلاق محمودة في زمان ثم تكون مذمومة في زمن آخر، فهي قيم ثابتة، تدرك العقول جمالها ومنطقيتها، وإدراك الإنسان لجمال الأخلاق هو الذي يشكل الدافع الحقيقي للتحلي والتخلق بها، وكل من كان راغباً في الخير فلا بد أن يكون حريصاً على الأخلاق الطيبة، وخاصة إذا تذكر أن وراء هذه الدنيا آخرةً سوف يحاسب فيها على أخلاقه ومعاملاته، فيجازى ويثاب على إحسانه وخلقه، ويعاقب على سوء خلقه وإساءته.

ـ إن من واجب الإنسان أن يطيع الله تعالى في هذه المعاملات، وأن يقوم بها على الوجه الذي شرعه الله، لأن ما شرعه خالقنا ومالكنا لا يجوز لنا أن نخالفه، وواجبنا أن نتبع أمر الله في كل شيء، سواء علمنا ما فيه من مصالح أم لم نعلم، فطاعتنا لأمر الله هي المصلحة الكبرى بحد ذاتها.

وعلى الرغم من وجوب طاعة أمر الله وتشريعاته سواء علمنا مصالحها أم لا؛ فإن هذه التشريعات لا تخلو من مصالح تدركها العقول، وإذا عرفها الإنسان كان ذلك أدعى في نفسه إلى التمسك بها، والعمل وِفْقَها، **وهذه أمثلة على ما تتضمنه المعاملات من حِكَمٍ ومصالح:**

ـ البيع والشراء والإجارة وغيرها من المعاملات المالية؛ قد أباحها الله تعالى لما فيها من مصالح ظاهرة، تحقق حاجات الإنسان، ويختبر الله تعالى العباد من خلالها في معاملاتهم وأخلاقهم، وقد حرم الله بعض الصور من التعامل بالمال، **كالربا**، وذلك لمصلحة راجحة وحكمة واضحة، وذلك أن الربا هو استبدال مال بمال أكثر منه بغير وجه حق، حُرِّم لما فيه ظلم واستغلال، إذ هو جشع من الأغنياء واستغلال لحاجة الفقراء، يزداد معه

الغني غنى والفقير فقراً، وهذا يتنافى مع مبادئ الرحمة والإحسان والتعاون، التي يدرك العقل حسنها.

ـ وقد أباح الله تعالى **الزواج**، لما فيه من مصالح العفة وبقاء النسل والتعاون على حاجات الحياة وأعبائها بتوزيع الوظائف في البيت وخارجه، وفتح باب الطلاق لما فيه من حلٍّ لمشكلات، وكل ذلك فيه مصالح ظاهرة للعباد، وحرم الله **الزنا**، فمنع هذه العلاقة لمصالح واضحة، لأن علاقة الزنا تفتح باب الشهوة وتُخرِج عن العفة، ومن لم نغلق عليه طريق الشهوة المحرمة، وفتحنا له باب الإثارة؛ فإن الشهوات تشغله، فلا يمكن أن يصفو ذهنه وقلبه لأي هدفٍ أو عملٍ أو طلبِ علم، فشهوته تشغل باله في كل وقت، وحرم علاقة الزنا لأنه يقطع الرحم، إذ كيف يتولى والد ولداً لا يدري هو منه أم من غيره، ولا يمكن أن تقوم على هذا الأساس الفاسد أسرةٌ لتحقق مصالح الإنفاق والسكينة والتعاون والمودة، وإذا لم يوجد والد يتكفل الأولاد؛ صار على الأم عبئان، عبء الحمل والإرضاع والرعاية، وعبء الإنفاق والعمل خارج البيت، وذلك تكليف لها فوق طاقتها، وراحة للرجل الذي لا ينفق إلا على نفسه، لأنه لا يعترف على أولاد المرأة الزانية، وليس بينه وبينها عقد يلزمه بخدمتها أو تكفل أبنائها، فليس من العدل ولا من المنطقي أن يكون الزنا مشروعاً وهو يؤدي إلى إرهاق المرأة وتحميلها المسؤولية وحدها، كما يؤدي إلى كل تلك المفاسد.

وفي عدم رعاية الأب والأم للأولاد تضييع لهم، إذ يصير كثير من هؤلاء المواليد مجرمين ضدَّ المجتمع، وهذا فساده ظاهر.

أما جعل الإنفاق والعملِ حقاً على الرجل ففيه توزيع للمهام بين الرجل والمرأة، ولا يمكن أن يحصل ذلك إلا باشتراكهما الحقيقي الصادق في الرابطة الأسرية الأبوية مع الأولاد، وذلك لا يكون إلا بالزواج وإنشاء أسرة وبيت،

ولا يمكن أن يكون مع الزنا والفاحشة، والتنقلِ من امرأة إلى أخرى، ومن رجل إلى آخر.

ـ ومما شرع الله فيه أحكاماً تحقق مصالح تدركها العقول:

العلاقة مع الآخرين من دعوتهم أو مسالمتهم أو حربهم، فعلاقات الدعوة والنصح والإرشاد للآخرين، وعلاقات السلم والحرب، على حسب ما شرعه الله كلُّها أمور معقولة، وذلك أن الإقرار بألوهية الله يقتضي أن يكون جميع خلقه عبيداً طائعين له، فلا يصح أن يقول أحدٌ: أنا أعبد الله وما لي ولغيري، فمن الواجب أن تكون سبباً في تعبيد الخلق جميعاً لله تعالى، بقدر استطاعتك، والقيام بهذا الواجب سبب في إنقاذ الناس من النار، وهي مصلحة ظاهرة معقولة للآخرين، كما أنها تعود على الداعي والناصح بالمصلحة، لأنها سبب في صلاح البيئة حوله مما يُعِينه أكثر على تزكية نفسه.

والعلاقة مع الآخرين وإقامة المصالح بينهم لا يصح أن تُفَوِّت المصلحة مع الخالق، لذلك لا يجوز إقرار أهل الباطل الذي خرجوا عن أمر الله، فوجبت دعوتهم، ووجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا بالغوا في المنكر إلى حد يفوت مصلحة الإيمان على الخلق، وجب جهادهم.

والجهاد هو علاقة الحرب والقتال التي تكون مع الآخرين، وهو أمر منطقي معقول، إذ لا يصح لمخلوق أن يُقِرَّ مخلوقاً آخر على معارضة خالقه، ولا يصح أن يقره على الباطل والفساد، خاصة وقد طلب الخالق من كل مخلوق أن يكون سبباً في هداية غيره وسبباً في منع غيره من الباطل.

ويظهر لك جمال الجهاد ومنطقيته، وما فيه من رحمة؛ إذا علمت أن المجاهد يبذل ماله ونفسه ويضحي بهما لينقذ غيره من النار، فيتحمل الأذى والجرح إحساناً إلى غيره، بأمر ربه.

والمجاهد لا يتواني عن الجهاد خوفاً من الموت، لأمر معقول يعلمه، وهو أن الله هو المحيي وهو المميت، فإذا قاتل في سبيل الله وجاهد لا يأتيه الموت إلا بقدَرِ الله، فالقتال والعدو لا يقرب أجلاً، والنوم في البيت والجبن والاختباء لا يؤخر أجلاً.

ـ والمعاملات والعلاقات بين الناس والعلاقة مع الكون هي أمور أحوجنا الله إليها واختبرنا بها، فلم يخلقنا الله كالملائكة لا يحتاج بعضنا بعضاً، ولم يخلقنا مثلهم لا نحتاج إلى الطعام والشراب واللباس والسكن وغيره مما يستخرج من الأرض وموادّها، وإنما جعل الله من عبادتنا تلك العلاقات والمعاملات التي نحتاجها، إذا أقمناها على الوجه الذي أراده، وقصدنا بذلك القصدَ الصحيح الذي شرعه لنا.

والهدف الأسمى لهذه العلاقات والمعاملات في دين الله أن تُنشِئ حضارة ذات قيم أخلاقية، راجعةً إلى الحق الذي تدركه العقول، تحقق مصالح العباد، التي تعينهم على إقامة أحكام دينهم وعباداتهم وإصلاح ما من شأنه نفعهم في آخرتهم.

فالعاقل يسعى لعمارة الدنيا على الوجه الذي يحقق له حاجاته، ويختصر عليه التعب، ويعينه على إقامة عبادته على أفضل وجه، العبادة بمعناها العام الذي يشمل العبادة الخاصة الفردية والعامة الجماعية، ويشمل المعاملة مع الخلق والعلاقات بينهم.

ولا يستطيع كل إنسان أن يقوم بكل حاجاته، فاحتاج الناس أن يقوم بعضهم بحاجة بعض، فلم يكن النظر في حاجة الإنسان إلى حاجته نفسه، بل النظر إلى حاجات الخلق جميعاً، ومجموع القيام بهذه الحاجات هو الذي يجب أن يشكل الحضارة، التي تنطلق من الاعتقاد الحق وتنضبط بالسلوك السليم الراقي، وتحقق حاجات الجميع بأيسر سبيل.

لذلك فإقامة الحضارة والعمران أمر معقول، راجع إلى حاجة الجسد إلى ما سُخِّر له في هذا الكون، وإلى حاجة البشر إلى التعاون فيما بينهم لتحقيق حاجاتهم مجتمعين، «إن لجسدك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لزورك[1] عليك حقاً، وإن لربك عليك حقاً».

ـ **والعُمْران والتقدم** في أسباب المدنية منه ما هو حد واجب، وهو ما يتحقق به قضاء حاجات الإنسان وبقاؤه ونصرته للحق الذي يعينه على تحقيق المصالح الأخروية، والقيام بهذا الحد لا يُخرِج المسلم عن العبودية والتزكية، بل يمكن أن يكون بالنية الصالحة عبادة يتقرب بها إلى الله، وما زاد على ذلك، مما هو ليس من الضروريات الحياتية للفرد والمجتمع؛ فلا يجوز أن يكون على حساب الواجبات الدينية، لأنه مباح فكيف يُقَدَّم المباح على الواجب، كما لا ينبغي أن يُقدَّم على المندوبات من العبادات، إذ ليس من المنطق أن يقدَّم المباح على الاجتهاد في الطاعة المندوبة، التي بها مزيد النعيم في الآخرة، إذ لا يستوي نعيم الدنيا القليل الزائل بنعيم الآخرة المقيم، قال تعالى: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

فليس من المنطقي أن أبني الدنيا وأسرف في الترفه فيها ـ ولو في الحد المباح ـ لأخسر الربح الأخروي والمزيد من النعيم، وذلك الذي ذمه الله تعالى بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فعدّ من استكبار الإنسان في الأرض ذلك العمرانَ الزائد عن الحاجة، الشاغل عن الآخرة، الذي يضيع الفراض والواجبات الدينية، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

(١) أي لمن يزورك، أي لضيفك.

[المنافقون: ٩]، فالدنيا بما فيها من أموال وبنين ليس مأذوناً بها على وجه يشغل عن ذكر الله وطاعته، وقال تعالى محذراً من اتخاذ كل ربح لعمران الدنيا، بل تتخذ منه ما يوصلك إلى جنتك في آخرتك: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، فتلك الآثار التي تتفاخر بها الدول وتعدها مظهراً من مظاهر الحضارة؛ قد ذم الله منها ما كان شاغلاً عن الآخرة وعن فرائضه وأوامره(١).

وقال سبحانه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، فالآخرة هي المقصود والمبتغاة بما أعطاك الله من مال ودنيا وعقل وجاه وقوة وسمع وبصر، والدنيا تأخذ منها نصيبك، وهو حاجتك والقدر الذي طالبك به الله لنفسك ولغيرك، وهذا النصيب يصير آخرة بالنية الصحيحة وبالرجوع إلى حكم الله في ما أعطاك.

ـ وليس من المنطقي ولا من الشرعي أن نُقصِّر في العمران والتقدم وبناء الحضارة عن القدر الذي نحافظ به على بقاء الإنسان وقدرته على القيام بمصالحه الحقيقية الأخروية، فلا يجوز لأحد من الناس أن يقصر في الأسباب التي تعين على بقاء الناس، وقضاء حوائجهم الجسدية الشخصية المباحة، ومن حوائجهم ما يعينهم على طاعتهم لله، فالإنسان لا يستطيع أن يقوم بحق دينه

---

(١) لذلك لما بنى أحد أمراء المسلمين مسجداً كلَّف الملايين من الأموال، وأشغل مئات الرجال، نحو عشرين سنة؛ قام قاضي المسلمين عندما جاء يفتتح المسجد يعنِّف الأمير ويذكره بهذه الآيات، وعدَّ فعله بناءه للمسجد جريمة، لا حضارة ولا فخراً، فكم من فقير جائع، أو مريض لا يجد العلاج، أو جاهل لا يجد أن يتعلم، أو أعزب لا يجد أن يتزوج، أو كافر ينتظر من يهديه؛ أحق بهذا المال، وأهم أن ينفق لهذه المهمات الحضارية، من أن يُنْفَقَ في زخرفة المساجد وتزيينها.

ما لم يقم بحق جسده في حده الأدنى، الحد الذي يعطيه قوة الفكر والجسد، ويعطيه القدرة على القيام بالواجبات الدينية.

ولا يصح للإنسان أن يهتم بإقامة حاجات غيره على حساب واجبات دينه، وإنما يقوم بها على وجه يتواءم مع المحافظة على واجباته، ولا يُقَدِّم حاجات غيره على واجباته الشخصية إلا إذا كان شرع الله يلزمه بحاجات الغير على وجه أوجب من واجباته، فيؤجر بذلك عند الله.

- ولما كان الخَلْق لا يسيرون على طريقة واحدة، ولا يهتدون جميعاً، فكان لا بد من اجتهاد في دفع شرور الأشرار والمفسدين، فكان من حوائج الناس التي يجب أن يحققوها؛ تلك القوة التي يحصل بها دفع المفسدين وأذاهم عن البشرية، لذلك فطلب التقدم العسكري وإعداد الجيوش وتصنيع الأسلحة التي تردع الظالمين والمجرمين والمفسدين جزءٌ من المطلوب شرعاً وعقلاً، ولا يصح الزهد فيما من شأنه قوةُ أهلِ الحق وردعُ أهل الباطل، وترك ذلك ليس من الزهد، بل هو من التهاون في أمر الله، وإنما ينشأ التقصير فيه بسبب الجهل بسعة دوائر التكليف، التي تعم البشرية جميعاً والأرض جميعاً.

فكان جزءً من الحضارة أن تهتم الأمة المهتدية بصنع السلاح الذي به يتمكنون من إقامة الحق على الآخرين وإخضاعهم له، ومن الحضارة اهتمامهم بصنع أدوات الدفع للشر، وكل ذلك من العبادة التي يُتقرب بها إلى الله.

ولا يمكن أن تستقيم لك أيها الإنسان عبادتُك في جو يملكك فيه أهل الباطل ويروجون باطلهم، فتصبح البيئة فاسدة مريضة، ولو سَلِمَتْ لك لم تسلم لأولادك والبيئةُ والمجتمع يربي على الباطل، فوجب الدفع للشر بالممكن من خلال الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن لم ينفع ذلك فلا بد من الجهاد الذي يقمع الباطل وأهله، والجهاد لا بد له من قوة وإعداد.

ـ وعلى ضوء هذه المعاني مجتمعة تفهم حقيقة المعاملات مع الآخرين، وعلى ضوئها تفهم حقيقة الزهد[1]، فمن فهم الزهد على أنه الانفصال عن العلاقة الدنيوية فقد أخطأ، وربما قهرته الحاجة، فجاء التعلق بالدنيا من جهة حاجته ليخرجه عن زهده الذي يدَّعيه، ومن تعلق قلبه بالدنيا وشهواتها بدعوى حاجته إليها فقد جعل الدنيا هدفه ومقصوده، وذلك جهل بهوان الدنيا وأنها مطية لا مقصد، وهذا الذي بُشِّر بالنار، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[الشورى: ٢٠]، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

إن زهد القلب بالدنيا من أعظم أسباب التزكية، لأن الإنسان لا يُقبل على ربه ولا يلتفت إلى آخرته؛ ما دام في قلبه تعلق بالدنيا وشهواتها، فوجب الزهد، لكن ما ذكرناه من حاجات الإنسان الشخصية وحاجات أهل الإيمان جميعاً، لا يجوز الزهد فيها، بل هي مما أمر الله به، فالالتفات إليها من العبادة، التي نطيع الله فيها، ونقبل عليه بها، ونستعد بها للآخرة.

ـ وإذا كانت أحكام الله التي بلغنا إياها النبي ﷺ هي التي يجب أن نطيعها، فما هي أهم أحكام الله التي يجب تَعَلُّمُها والعمل بها، نبين ذلك في ما يلي:

---

(١) ومجال كلامنا هنا عن الزهد في الدنيا من حيث الظاهر، أما زهد القلب فذلك واجب في كل حال، وهو أن لا يجعل الإنسان الدنيا مراده ومقصوده في حياته وأعماله.

المبحث الثامن

ما هو الحد الأدنى من الثقافة والعلوم التي نحتاجها في حياتنا؟

فيما يتعلق بالدين من العقائد والعبادات والمعاملات ومعرفة النفوس وكيفية تزكيتها، وفيما يتعلق بالدنيا:

ما دام حكم الله هو الذي يجب أن يعمل به كل إنسان؛ فلا بد أن يتعرف على أحكام الله ويتعلمها، ليعمل بها.

والحد الأدنى من طلب العلم الشرعي، الذي يُفتَرَض على كل إنسان أن يتعلمه؛ ليس بالحد الكبير، وإنما يكون على النحو التالي:

أولاً: تعلم أصول **العقائد** والمسائل المهمة في العقائد، التي لا يجوز للمسلم أن يغفل عنها ولا أن يجهلها، وينبغي أن يفهم الدليل والحجة في أصول العقائد بحيث لا يكون مقلداً لغيره على العمى، بل يكون مقتنعاً بما يعتقد، فلا يؤثر عليه ولا يشوش عليه أحد في اعتقاده، وهذا أول واجب مما على الإنسان أن يتعلمه.

ثانياً: أن يتعلم من علم **الفقه** القدرَ الذي يحتاجه كل مسلم في حياته.

ومما يحتاجه كل مسلم فقهُ الطهارة والصلاة والصيام، بتفصيلاتها من فروض وشروط وواجبات وسنن.

أما فقه الزكاة فقد لا نحتاجه في حياتنا، فلا يجب ابتداءاً أن نتعلم تفصيلاته إلا على سبيل الندب، ولكن نأخذ ملخصاً عن الزكاة بحيث نعرف أن في الأموال والذهب والفضة والبقر والشياه والماعز والزروع

والعروض التجارية وغيرها زكاةً، ضمن شروط معينة، ومن وُجِد عنده مال بالقدر الذي تجب فيه الزكاة؛ وجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة المتعلقة بأمواله.

وأما الحج لا يجب أن نتعلم أحكامه ابتداءً، سوى أن نعلم أنه فرض عند الاستطاعة، وإنما يجب أن نتعلم أعمال الحج إذا أردنا الحج وعزمنا عليه وأردنا الدخول في أعماله، عندئذ ينبغي أن تكون عالماً بالحج، حتى لا تقع في الخطأ والنقص نتيجة الجهل بأحكامه وتفصيلاته.

ويلتحق بالعبادات بعض أبواب الفقه فيجب معرفتها كالأَيْمان والنذور والذبائح والعقيقة لما فيها من معنى القربة إلى الله.

هذا هو الحد الأدنى من العلم بالنسبة للعبادات.

أما **المعاملات** فينبغي للمسلم أن يعرف شيئاً من أحكام المعاملات فيما يحتاجه في حياته عادة، كأحكام البيع والإجارة والنكاح، ولا بد للإنسان أن يكون لديه اطلاع على المعاملات في الجملة، ليعلم أن لله أحكاماً في التجارات والشركات والصرف والميراث والطلاق وغير ذلك.

وإذا لزمه أمر من هذه المعاملات، أو اشتغل بمعاملة لا يعلم أحكامها؛ وجب عليه عندئذ أن يتعلم أحكامها أو أن يسأل أهل العلم عنها.

ثالثاً: ينبغي أن يتعلم من علم **التزكية** الحد الواجب الذي يتعرف به على تطهير نفسه وإصلاحها.

ـ ومن واجب المقبل على الله تعالى الذي يريد خير نفسه وتزكيتها أن يتعلم العقيدة والفقه والتزكية عند العلماء والفقهاء المتقنين الصادقين العاملين الربانيين، ومِن كُتُبِ هذه العلوم المعتمدة عند علماء الأمة.

وعلى العالم أن يبدأ بتعليم الناس هذه الأمور قبل غيرها، فذلك من فقه العالم وربانيته، قال البخاري: «قال ابن عباس: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]: حلماء فقهاء، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره».

ـ **أما العلوم الدنيوية** فيأخذ منها الإنسان ما يحتاجه في حياته، بشرط أن لا يكون ذلك مؤثراً على علم آخرته وعمل آخرته.

كما أن من العلوم الدنيوية ما هو **فرض كفاية**، وذلك مما تحتاجه الأمة في بقائها وقوتها ونصرة دينها والدفاع عن نفسها.

ولا بد للذين يطلبون هذه العلوم الكفائية ـ الذين يقومون بها نيابة عن الأمة ـ أن يكونوا قد حصلوا علم فرائضهم العينية بطلب الحد الواجب من علم العقائد والفقه والتزكية.

ومن طلب العلم وفق القواعد السابقة عسى أن يكون علمه مزكياً له ونافعاً له وللأمة المسلمة.

المبحث التاسع

ما هي العلاقة الأهم في حياتك؟ وماذا ينبني على مراعاتها؟

أهم العلاقات:

ـ إن معرفة الحقائق التي تنبني عليها العلاقات بين الإنسان وربه، وبين الإنسان والناس، على اختلاف عقائدهم ومبادئهم؛ من أهم الموجِّهات للإنسان في حياته وأعماله، ومن بنى علاقاته على غير الحقائق الصحيحة؛ كانت حياته على غير هدى، ومعرفة الحقائق المتعلقة بهذا الأمر ثم العمل بمقتضاها من أهم ما تزكو به النفس، وهذه الحقائق هي الأساس الذي ينتج عنه الإخلاص والاستقامة والحب السليم، وهذه الأمور من أعظم أمور التزكية.

ـ لا بد أن يتساءل الإنسان: ما هي أهم علاقة لي في الحياة؟ ما هي العلاقة التي تتوقف عليها مصالحي واحتياجاتي؟ وإذا كانت مصالحي الكبرى تتوقف على العلاقة مع جهة ما، فكيف تكون علاقتي مع الآخرين؟ وإذا توقفت مصالحي ومنافعي على جهة ما؛ ألا يجب أن أحب تلك الجهة أكثر من غيرها؟ ألا يجب أن أخضع لها؟ ألا يجب أن أكون مخلصاً لها ومتفانياً في خدمتها؟

إن العلاقة الأهم في حياتك هي علاقتك مع الله، لأن مصالحك ترجع إليه، ومصالحك متوقفة على فضله وعطائه وإمداده، وعلاقتك الأهم هي التي يجب أن تكون أساس العلاقات الأخرى مع الخلق جميعاً.

إنه مهما يكن لك من مصلحةٍ أو حاجةٍ عند أحد من المخلوقين؛ فلن تكون محتاجاً إليه أكثر من احتياجك إلى خالقك، الله الذي أوجدك، ويملك حياتَك وبقاءك، ويملك سمعك وبصرك، ويملك قَلبك وروحك، ويملك الكون الذي سخره لك، ويملك مآلك ومرجعك، ويملك جزاءك أو عقوبتك، فمهما أحسن إليك المخلوقات؛ فلن يحسنوا إليك أكثر من الله.

ومهما أصلحت حالك مع أحد من المخلوقين ولم تصلح حالك مع الله؛ فلن تستفيد، فدنياك وآخرتُك وسعادتُك وخيرُك، كلُّها بيد الله.

لأجل ذلك فالعاقل من توجه إلى ربه وطلب رضاه، وعمل بطاعته وبما يرضيه.

من فهم هذه الحقيقة فلا بد أن يكون مستقيماً على أمر الله وأحكامه.

علاقة الحب الأهم:

ـ والعاقل يحب من أحسن إليه، وليس أحد له إحسان عليك أكثرَ من الله، بل كل إحسان الخلق راجع إلى إحسان الله ورحمته وما هيأ لك وما خلق وما سَخَّر لك.

والعاقل يحب من يتصف بصفات الخير والحسن والكمال، ولا يحب من يتصف بصفات النقص أو السوء، وليس لأحد صفاتٌ كصفات الله، وليس لأحد كمال ككمال الله، فهو الأحق بأن يكون المحبوب الأول لكماله ولفضله على خلقه جميعاً.

لذلك فلا بد أن تتوجه إلى الله بالطاعة عن حب ورغبة، لأن كل خير يصيبك فإنما هو من فضله، فكيف لا تحبه، وهو المتصف بأحسن الصفات، فكيف لا تحبه؟

وليس من العقل ولا من المنطق أن تحب من هو أقلُّ حسناً وكمالاً أكثرَ من الأحسن والأكمل، وليس من العقل ولا من المنطق أن تحب من إحسانُه لك قليلٌ أكثر ممن إحسانه وفضله عليك أكثر.

فالأمر الطبيعي أن يكون حب الإنسان لربه أعظم من حبه لسواه، وهذا شأن المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

لمن نتوجه بأعمالنا:

وما دامت مصالِحُنا كلُّها راجعةً إلى الله؛ فينبغي أن نجعل علاقتنا معه هي العلاقة الأسلم، ونعطيها الاهتمام الذي تستحقه، ونبني علاقاتنا مع الآخرين بناءاً على علاقتنا مع الله، فلا قيمة لعلاقاتنا مع الآخرين إذا كانت تُفسِد علاقتنا مع ربنا، الذي نحتاج إليه ونفتقر إليه، بل كل علاقة تفسد علاقتنا مع الله هي علاقة خاسرة تُهلِك صاحبها عاجلاً وآجلاً، ولو توهم أنه يستفيد منها قريباً.

ومن علم أن منافعه ومصالحه كلَّها في يد الله، وعلم أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له لم ينفعوه، وأنهم لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يكتبه الله عليه لم يضروه، من علم ذلك فإنه لا يلتفت إلى الخلق ولا إلى ما يعجبهم ولا إلى ما يرضيهم، وإنما يلتفت إلى الله وإلى ما يرضيه، فيعمل بأحكام الله التي جعل الله العمل بها سبباً في رضاه ومحبته ورحمته وجنته، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والإخلاص والاستقامة تنتجان عن فهم هذه الحقيقة والعمل وِفْقَها، إذِ المخلص هو الذي لا يلتفت إلى مخلوق، ولا يتحرى رضا المخلوق، بل كل أعماله يتحرى بها رضا الخالق سبحانه، فكلما أراد أمراً أو فعلاً نظرَ وفكر: ماذا يريد الله منه في هذا الأمر؟ فإن كان لله فيه أمر وحكم؛ فعله، وإن كان فيه نهي أو تحريم؛ تركه، وإن أباحه الله وأذن به؛ فعله أو تركه، وبهذا لا يكون له تصرف ولا فعل ولا قول إلا لله ووفق أمر الله، فيكون مستقيماً على أمر الله مخلصاً لله.

كيف نجعل علاقاتنا مع غير الله، ومن نحب ومن نكره؟

ـ ولما كانت علاقتي مع الله هي الأصل، وهي الأهم، وهي مصلحتي ونفعي وخيري وفائدتي، فلا بد أن تكون أيُّ علاقة أُنشِؤُها مع غيره مبنيةً على علاقتي مع الله، حتى لا تكون العلاقة مع غيره سبباً في إفساد علاقتي مع الله، فلا بد أن تكون كلُّ علاقاتي مُؤَسَّسَةً على رضا الله والرجوع إليه وإلى حكمه، فيجب أن أُحِبَّ من أمرني ربي بحبه، وأبغض من أمرني ببغضه، وأعطي لأجل الله، وأمنع لأجله، واتباعاً لأمره وحُكْمِه، «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[1].

فالحقائق الإيمانية التي ذكرناها هي الأساس الذي تُبنى عليه العلاقات مع الآخرين، **وأحكامُ الله هي التي يجب أن تضبط أي علاقة مع الآخرين**، حتى لا تكون على حساب علاقتك مع الله، فبناءاً على أحكام الله تحب الآخرين أو تكرههم، وتعطيهم أو تمنعهم، وتواليهم أو تتبرأ منهم، تنصرهم أو تسالمهم أو تقاتلهم.

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٦٨١. وأخرجه الحاكم رقم ٢٦٩٤ وزاد: وأنكح لله، وصححه على شرط الشيخين، ونحوه عند أحمد في مسنده ٣/ ٤٣٨.

ـ وكل من أصلح علاقته مع الله ورجع إلى حكم الله؛ فهو يستحق أن أحبه وأكون معه، لأنه تصرف وفق الحقائق الثابتة التي ذكرناها، فكل من يحتكم إلى حكم الله فهو محل قبولنا ومحبتنا ورضانا، بل يصير قدوة لنا، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (1)﴾ [لقمان: 15].

وكل من خالف حكم الله تعالى وانحرف عنه، فكيف نحبه وقد ترك الحقائق الثابتة التي بيناها وانحرف عنها، وكيف نحبه وهو يُسخط الله الذي خَلَقَه، إذ جهل قَدْرَ الله، واعتدى على حقه سبحانه في الحكم والتشريع.

ومن هاهنا كان لقضيةِ إرجاعِ الأحكام إلى الله أو عدمِ إرجاعها، كان لهذه القضيةِ مدخلٌ في محبة المخلوقين أو بغضهم، فهذه القضية هي أساسُ الولاء أو البراء، فمن احتكم إلى حكم الله الذي ارتضيناه؛ أحببناه وواليناه ونصرناه وأطعناه، ومن احتكم إلى حكم لم يرتضه الله تعالى؛ عاديناه وكرهناه وتبرأنا منه وخالفناه، وندعوه إلى مراجعة نفسه والاعتراف بحق ربه، وإن رفض قاتلناه حيث أمرنا الله بقتاله.

وهذا الأمر قد يظنه البعض أنه نوعٌ من التشدد والتعصب عند المسلمين، وليس الأمر كذلك، بل إن هذه القضية هي سنةٌ كونية في البشر، أمر متفق عليه عند كل الخلق، فكلُّ أصحابِ ملةٍ أو منهج أو فكر أو مبدأٍ؛ تجدهم يجعلون ثقافتهم ومبادئهم وأحكامَهم هي محورَ المحبةِ والمناصرةِ عندهم.

وهذه الحقيقة بيّنها الله تعالى في القرآن واضحة، إذ بين أن الثقافة والفكر

(1) أي أقبل على الله ورجع إلى أحكامه وشريعته، قال الطبري في تفسيره ج10، ص211: «وقوله ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يقول: واسلك طريق من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام واتبع محمداً ﷺ... عن قتادة: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: أي من أقبل إلي».

والشريعة والدين هي محورُ المحبة والنصرة عند الناس جميعاً، وكذلك عند المؤمنين، فمن يدعي بأنه يحبك وأنت على خلاف قانونه وحكمه فهو كذاب، ومن يدعي بأنه يحب المسلمين وهو على غير شريعة المسلمين فهو كذاب مخادع للمسلمين، ومن يدّعي من المسلمين أنه يحب أحداً من الكافرين ـ الذين هم على خلاف قانونه وشريعته ـ فهو يَرْتَضي شريعتَهم وثقافتهم فهو منهم ولم يعد مسلماً، إلا أن يكون يخادِعُهم ويكذب عليهم.

كل ذلك بينه الله تعالى واضحاً فاسمع إلى إرشاده وهديه وبيانه سبحانه الذي عرفك بهذه الحقائق، ولم يتركك تتيه وتحتار، ولم يدعك ليكذب عليك الكافرون أو يضلوك أو يغرروا بك:

فقال سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فرضى اليهود والنصارى والكافرين وما يَتْبَعُهُ من محبة؛ متوقفٌ على اتباع مِلَّتِهم أي طريقتهم وشريعتهم وثقافتهم وأحكامهم.

والمؤمن ـ في المقابل ـ كذلك لا يرضى عن أحد من الخلق ولا يحبهم ولا يواليهم ما لم يكونوا على ملته، قاعدة واحدة ثابتة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، فانظر كيف وصف اللهُ مَن يكفرون بالحق الذي أنزله أعداءً له، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾، فكيف لا نعاديهم؟

وانظر كيف أنكر اللهُ على من يوالي أعداء الله وينصرهم ويلقي إليهم بالمودة والمحبة، وهم على خلاف شريعته الحق: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾؟، فاستنكار الله ذلك دليل على أنه أمر مرفوض لا ينبغي أن يكون.

كما بين ذلك أيضاً بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ[1] مَنْ حَآدَّ[2] ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فقوله: ﴿لَّا تَجِدُ﴾ يبين استحالة اجتماع المحبة مع المخالفة في الشريعة، أي المخالفة لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ، ولا يكون المؤمن مؤمناً إلا بفهم هذه الحقيقة، ومن فهمها فقد فهم الإيمان، لذلك وصفهم الله تعالى بقوله مباشرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والله تعالى يحذرك أيها المؤمن أن تجهل هذه الحقيقة، فتواليَ الكافرَ وتناصرَه أو تحبَّه، فإن ذلك يخرجك عن ملة الإيمان إلى ملة الكفر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، فكيف تكون تزكية بعد جريمة الموالاة للكافرين، أو نقض الولاء لله وللمؤمنين.

والذي يوالي الكافر فقد ذهبت حجته أمام الله وباء بسخط الله وحقت عليه العقوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

كما حذرنا الله تعالى أن نغتر بما يبدي لنا الكفار من كلام معسول، وبما يظهرون من صداقة أو تعاون أو محبة، فالقلوب لا يمكن أن تجتمع مع افتراق

---

(١) ﴿يُوادّون﴾: أي يحبون.

(٢) ﴿حادّ﴾: أي خالف على سبيل الإعراض والمحاربة.

الشريعة والمبادئ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً (١) مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا (٢) وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ (٣) قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ (٤) مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ـ وإذا كان ولاءُ الكافر ونصرتُه لمن أحبهم من دون الله كبيراً، فحبك أيها المؤمن لله ينبغي أن يكون أكبر وأشد، وما يقتضيه هذا الحب من طاعة لله ولرسوله ﷺ ومن نصرة لدين الله، ينبغي أن يكون أكبر من نصرة الكافرين لثقافاتهم وباطلهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ـ **هذه المقدمات العلمية المنطقية الواضحة**، التي تُعَرِّفُ بمن يستحق أن نتعلق به ونأخذ بأحكامه وأوامره، وتُعرِّف بمن يستحق أن نُخلِص له ومن يستحق الحب الأكبر والولاء والنصرة، ومن يستحق البغض والعداوة، **هي الأساس الذي يصنع أموراً عظيمة في تزكية النفس**: فهي التي توجد مقام الاستقامة، ومقام الإخلاص، ومقام الحب.

وحقيقة الحب لله تعطي التعلق به والحضور معه، وتدفع إلى طاعته وترك معصيته.

وفهم هذه الحقائق يجعل الإنسان يحب الأنبياء والمؤمنين، ويدفعه إلى الانتفاع منهم، وإلى صحبتهم ونصرتهم.

وفهم هذه الحقائق يجعل الإنسان يكره الكافرين والفاسقين ويبتعد عنهم

---

(١) ﴿ بِطانة ﴾: البطانة: هم المقربون الذين تعتمدون عليهم.

(٢) ﴿ لا يَأْلُونكم خَبالًا ﴾: لا يقصرون في إفساد حالكم.

(٣) ﴿ وَدُّوا ما عَنِتُّمْ ﴾: يتمنون ما يرهقكم ويتعبكم ويؤذيكم.

(٤) ﴿ البغضاء ﴾: شدة الكُرْه والعداوة.

ويعاديهم، بعد أن يدعوهم، ويمنعه من التعلق بهم أو الأخذ عنهم أو الصحبة لهم، ويمنعه أن يعينهم على باطلهم أو أن يناصرهم.

ـ وهذه الحقائق وما ينبني عليها هي التي فهمها الصحابة رضي الله عنهم، فكانوا جيلاً مستقيماً مخلصاً، فإنهم لما أسلموا وعلموا أن الله هو الذي ينفعهم جعلوا نظرهم إلى حكمه وعملوا بأمره، ولم يلتفتوا إلى سواه، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

وهكذا كل مؤمن ينبغي أن يفقه هذه الحقائق ويبني حياته عليها، فيعيش لربه، ووفق حكم ربه، لا لنفسه ولا لشهوته ودنياه، ولا وفق ما يهواه أو يهواه غيره من الخلق.

ـ وحب النبي ﷺ حباً أكثر من غيره من المخلوقين ينبني على هذه الحقائق التي ذكرناها في هذا المبحث، وفهم الحقائق المتعلقة بذلك هي التي تصنع هذا الحب وتدعو إليه، وهي التي تصنع ما ينبني عليه من حِرصٍ على الاتباع له ﷺ والتَشَبُّهِ به، وهذه الأمور هي فرائض إيمانية واعتقادية، وينبني عليها تحقيق الفرائض العملية من عبادة ومعاملة وأخلاق وسلوك، لأجل ذلك كان لا بد من تفصيل هذا الأمر والتأكيد عليه، في المبحث الآتي:

المبحث العاشر

قدر النبي محمد ﷺ ولماذا نحبه أكثر من غيره من الخلق؟

لقد أعطى الله تعالى نبيه محمداً ﷺ من الصفات والخصائص ما يدعو إلى إجلاله والتعلق به وحبه أكثر من غيره من الخلق، فمن ذلك:

ـ مما يدعونا إلى حب هذا النبي العظيم ﷺ أنه كان على أحسن حال وأحسن خلق وأحسن عمل وأحسن معاملة وأحسن عبادة وأحسن قول وأحسن نية وأحسن اعتقاد وأحسن حكم وأحسن قيادة، فليس أحد من الخلق أحسن منه حتى نحبه أكثر منه، ولا نحن أحسنَ منه، فحسنه يدعونا إلى أن نحبه أكثر من حبنا لأنفسنا، ومن أعظم دواعي الحب للآخرين جمالهم وحسنهم، والنبي ﷺ هو أحسن الناس وأجملهم صفات، فوجب أن نحبه فوق كل حب بين الخلق.

وكونه على أحسن حال وقول وعمل يدعونا إلى أن نتبعه، ففعله خير مما يفعل غيره، وما دلنا عليه خير مما يدلنا عليه غيره، فوجب أن نُقَدِّم اتِّباعَه على اتِّباعِ غيره.

ومما يدعونا إلى حب هذا النبي ﷺ أنه كان سبباً في إيصال الخير والهدى لنا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، فهو أنفع لنا من كل مخلوق غيره، وهو أنفع لنا من أنفسنا، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهو أَعْرَفُ بخيرنا من معرفتنا، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وهو أحرص على هدايتنا من حرصنا على هداية أنفسنا، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨]، لذلك كان أولى بنا من أنفسنا، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ومن أعظم دواعي الحب للآخرين إحسانهم إليك، والنبي ﷺ هو أكبر محسن إلينا من الخلق، كما تبين لك مما ذكرنا، فوجب أن نحبه فوق حب كل مخلوق.

ومن شدة حرصه على هدايتنا يتحسر ويتألم على من لم يقْبَلِ الهداية، قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقد وصف نفسه ﷺ في حرصه علينا أكثر من حرصنا على أنفسنا، فقال ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادِبُ والفَراشُ يَقَعْنَ فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخذ بحُجَزِكم عن النار، وأنتم تَفَلَّتُون من يدي»[(١)].

ومما يدعونا إلى حب النبي ﷺ أنه أطاع الله وأرضاه أكثر من غيره، وأحبه الله أكثر من غيره، وأمرنا بحبه أكثر من غيره، وواجبنا أن ننطلق في حب كل أحد من حبنا لله[(٢)]، فإذا أحببنا أحداً أكثر منه فقد خالفنا علم الله وحُكْمَه، فالله لا يحب أحداً أكثر إلا لأنه يستحق ذلك الحب، فإذا أحببنا أحداً فوق حبنا له فقد قدمناه عليه وخالفنا ربنا فيما قدم، لذلك أخبرنا النبي ﷺ أنه لا يتم الإيمان إلا بأن نقدم حبه على كل حب، فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[(٣)].

ومما يدعونا إلى حبه أن الله تعالى جعل أقواله وأعماله تشريعاً لنا، فأمرنا

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٢٨٥ عن جابر ﷺ، وأخرج نحوه البخاري رقم ٦١١٨ ومسلم رقم ٢٢٨٤ عن أبي هريرة ﷺ، وقوله: (الجنادب): الجراد وأمثاله، (يذبهن): يدفعهن ليمنعهن من الأذى، (بحجزكم): أي بمعقد الإزار، أو بالحزام الذي يربط على البطن.

(٢) كما بينا فيما سبق، فالعلاقة الأهم والحب الأهم هو علاقتك مع الله وحبك لله.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٥، ومسلم رقم ٤٤، وفي رواية له: «من أهله وماله والناس أجمعين».

بطاعته ومتابعته، وجعل طاعته من طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وإنما جعل أفعاله وأقواله تشريعاً واجبَ الاتباع؛ لأنه ﷺ لا يفعل إلا ما يرضي الله، ولا يقول إلا ما يرضيه، وهذه السُلْطة التي أعطاه الله إياها سُلْطة ربانية عظيمة، في أن تكون أعماله ﷺ وأقواله تشريعاً، وأن تكون طاعته طاعة لله، وهي تدل على أن الله تعالى قد هداه إلى كل خير وحق، وعصمه من كل شر وسوء وباطل، كما تدل على أنه لا يخالف أمر الله في شيء يفعله أو يقوله، هذه السلطة التي أعطاه الله إياها وأخبرنا بها هي التي تصنع عندنا الثقة التامة بأن أقواله وأفعاله ﷺ جميعَها حق وخير وموافقة لما يريد الله، ولذلك لا يجوز لأحد أن يقترح عليه أحكاماً، لأن الأحكام أصلاً ليست منه، بل من الله، والله تعالى لا يخطئ ولا يجهل ولا يظن ولا يتوهم ولا ينسى، فلا يجوز أن يُقتَرَح عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ـ والله تعالى جعل كل نبي أُنْمُوذَجاً للخير والحق والصلاح والتقوى والهداية، كما قال الله تعالى في عيسى ابن مريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وأنبياء الله كلهم عظماء وكاملون، وقد شاء الله تعالى أن يجعل نبينا محمداً خاتماً للنبيين وجعله مبعوثاً إلى الناس كافة، فجعله أعظم مثال للحق وأكمله، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، فانظر كيف وصفه بأنه مصدر للنور، فهو السراج والشمس المنيرة التي تستمد الأقمار منه نورَها.

ـ وبعد كل هذا تعلم أن الحقائق التي تدعونا إلى حب النبي ﷺ وطاعته كثيرة، ولم تكن طاعتنا له وحبنا له أمراً عشوائياً مزاجياً تحكمياً، بل المنطق السليم يقتضي أن نقدم طاعته على غيره من الخلق، ونحبه أكثر من غيره من الخلق، ونعظم قدره ونعتصم بسنته.

وذلك كله من لوازم إيماننا بالله عز وجل وطاعتنا له وحبنا له.

ـ إن معرفة الله وصفاته تقتضي حبه، وحب الله مع جلاله ومعرفة حقه يقتضي الخضوع له، والخضوع له يقتضي عبادته، وعبادته لا ينبغي أن تكون خلاف مراده، والنبي ﷺ هو الذي قام بعبادة الله قولاً وفعلاً على كمالها، فلزم متابعته في عبادته، وإن تابعناه أحبنا الله وغفر لنا، لأننا بمتابعة النبي ﷺ نكون قد أطعنا الله، والله يحب من اعترف بحقه وخضع له وأطاعه وأحبه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

ـ ومن آمن بالنبي الرسول محمد ﷺ واقتدى به كان أهلاً للحب بقدر متابعته وموافقته، وكان أهلاً لأن نتابعه ونطيعه فيما تابع به رسول الله ﷺ وأطاعه فيه ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥]، فواجب أن نحب المؤمنين الصالحين على قدر اتباعهم ظاهراً وباطناً، فهذا جمالهم وحسنهم الذي نحبهم لأجله، كما نحبهم على قدر نفعهم لنا، ونفعهم بتذكيرنا بالله وتعليمنا أحكام الله ومساعدتنا في إقامتها.

ـ ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ هم أعظم الناس جمالاً وحسناً بعد رسول الله ﷺ، لأنهم الأكثر اتباعاً للنبي ﷺ، والأكثر موافقة لأمر الله وحكمه؛ وجب حبنا لهم أكثر من غيرهم لأجل حُسْنِهم.

ولما كان الصحابة أكثر الناس إحساناً لنا ونفعاً بعد رسول الله ﷺ، إذ حملوا الدين لمن بعدهم، وجاهدوا وبذلوا، وتركوا لذّاتِهم وديارَهم وأهلهم وأموالهم لأجل مَنْ بَعدَهم، لما كانوا كذلك وجب حبنا لهم أكثر من غيرهم لأجل إحسانهم إلينا أكثر من غيرهم.

خاتمة الفصل

لقد ذكرنا فيما سبق أهم ما ينبغي أن يعرفه الإنسان من الحقائق، واعتقادُ الحقائق يشكل بذاته تزكية للنفس والعقل، لأن النفس لا تكون طاهرة مترقية إذا اعتقدت الباطل، ومعرفة هذه الحقائق واعتقادها هو الذي يشكل الأساس المنطقي الذي يدفع القلب والجسد إلى أعمال التزكية، والعاقل هو الذي يجعل الحكم للعقل على القلب والجسد، فيظهر أثر التعقل والتفكر والمعرفة في توجه القلب ورغباته وعواطفه وإراداته واندفاعاته، التي تؤثر بدورها على الجسد، فإِنْ عَقَلَ العقْلُ الحقَّ واعتقدَه؛ كان القلب والجسد مؤهلاً لأَنْ يكون على خير، وإن جهل العقلُ وأخطأ الفكرُ الحقَّ كان القلب والجسد على باطل وانحراف.

البرنامج العملي
الموصل إلى تزكية العقل والفكر

العمل	الرقم
البحث عن أهم الحقائق في الكون من خلال استعمال العقل بالتفكير والنظر والتعقل	١
التصديق بالحق عند معرفته	٢
التفكير والنظر في الكون وما فيه وما يدل عليه	٣
حضور دروس العلماء في العقائد وسؤالهم عن الحقائق وأدلتها ومناقشتهم حتى يصل إلى الحق وخاصة دروس أدلة الشرع والعقل على وجود الله وصفاته ودليل المعجزة ودروس شرح الأسماء الحسنى. وإن لم يتمكن من حضور دروس في ذلك قرأ كتباً ميسرة في هذه الموضوعات	٤
التفكير في حقيقة وجود الخالق	٥
طلب الهداية من الله بعد الإيمان به لأنه يملكها	٦
التفكير في صفات الخالق وأنه الحي والعليم والفعال لما يشاء والقادر والمالك والحاكم في ملكه...	٧
التفكير في حقيقة الإنسان ووظيفته ومقصد وجوده	٨
التفكير في رسالات الله إلى الخلق	٩
التفكير في صدق النبي محمد بن عبد الله ﷺ والتأكد من حقيقة معجزاته وصحة رسالته	١٠

الرقم	العمل
١١	تلاوة القرآن مع التفكر في آياته للتعرف من خلاله على الحقائق المهمة وبراهينها
١٢	التفكير في حقيقة الدنيا وهوانها وأنها ستفنى وأنها وسيلة ومحل اختبار وابتلاء وكيف يتعامل معها تعاملاً سليماً
١٣	التفكير في حقيقة الآخرة، ووجوب الإستعداد لها
١٤	تذكر الحقائق، لتبقى دافعاً نحو الخير والهدف السليم، ومولداً لأحوال القلب السليمة ودافعاً إلى الأعمال الصالحة، ويتم التذكر من خلال: ذكر الله بالحضور وقراءة القرآن بالتدبر والتفكر في الحقائق السابقة ومجالسة العلماء الصالحين الذي يعرفون الله وأحكامه ويتحدثون عن ذلك الانشغال بالعبادات ملاحظة الأثر الفطري في النفس الذي يدعو إلى العبادة والانتباه عند وقوع البلايا والأحداث التي توقظ العقل والفكر
١٥	تجنب ما يمنع الهداية، وأهمها: التكذيب بالحق، والإعراض عنه، الجهل واتباع الوهم، التقليد، اتباع هوى النفس، الغفلة، تعظيم الدنيا واستحبابها على الآخرة، الكِبر والغرور، الظلم، الحسد، قبول وساوس الشياطين وكلام أهل الباطل، شرب الخمر والمسكرات والمخدرات، المعاصي التي قد تغطي النور عن القلب فلا يعقِل الحق

فهرس الموضوعات

المرحلة الأولى مرحلة الطالبين

الباب الثاني: تزكيـة العقـل والفـكر

الفصل الأول

حقيقة العقل ووظائفه

الفصل الثاني

تزكية العقل والفكر ليصل إلى الهداية

الفصل الثالث

المنهج الفكري